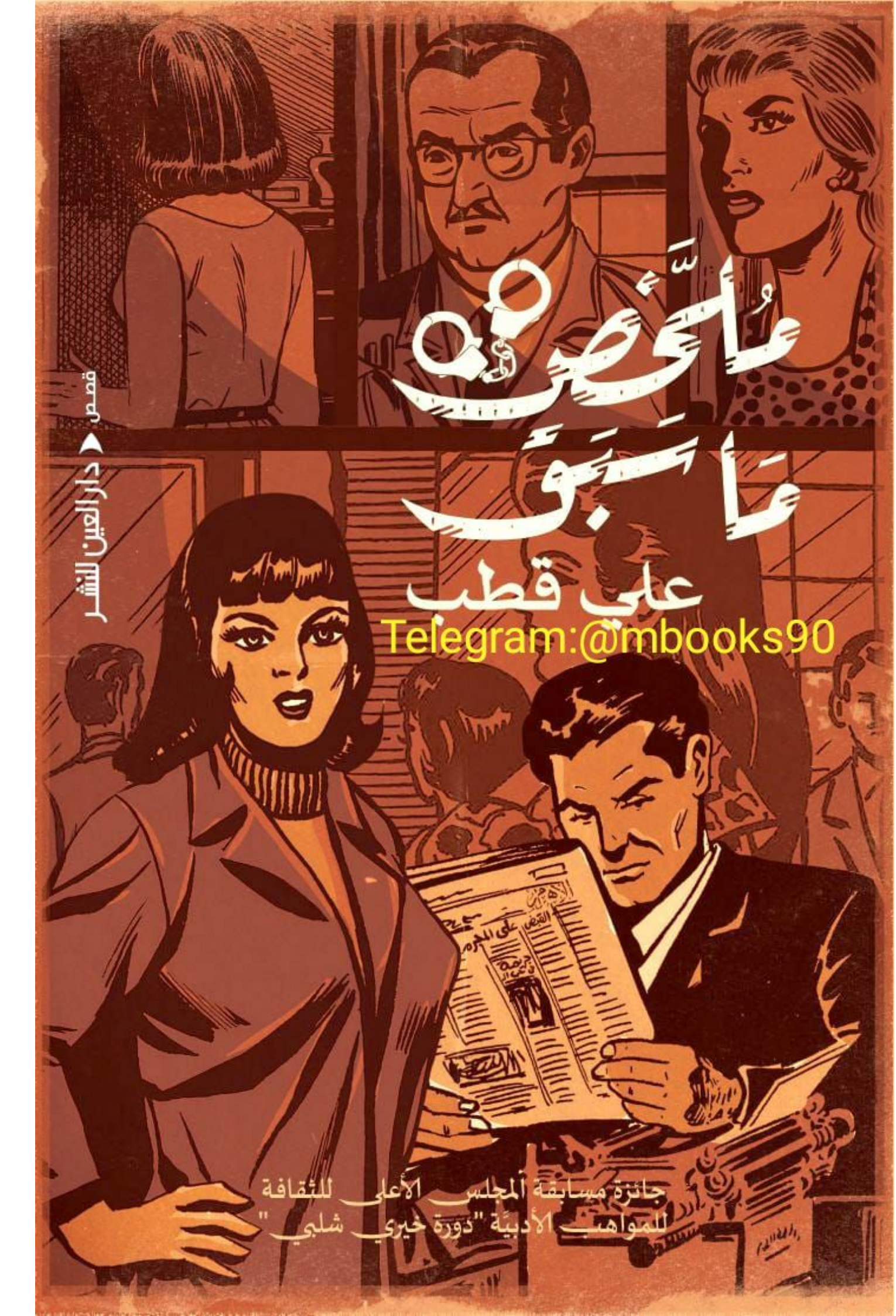

مُلخَّص ما سبق
علي قطب
Telegram:@mbooks90
دار العين للنشر ◄ قصص
جائزة مسابقة المجلس الأعلى للثقافة
للمواهب الأدبيَّة "دورة خيري شلبي"

ملخص ما سبق

قصص

علي قطب

دار العين للنشر

أسستها د. فاطمة البودي عام 2000

المدير العام

4 ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: 23962475 20+ ، فاكس: 23962476 20+

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الطبعة الأولى: 2023 م

تصميم الغلاف: عبد الرحمن الصواف

الرسوم الداخلية: سما عبد الرحمن

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٢٣/ ١١٠٥٦

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 695 - 4

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار العين

تعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف

وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار

٢٧٠٧٤٢٨١١٢

لأسباب كثيرة يجب إهداء هذه القصص لهم...

بترتيب الميلاد:

توفيق الحكيم

يحيى حقي

نجيب محفوظ

إحسان عبد القدوس

يوسف إدريس

خيري شلبي

الشموس يمكن أن تغيب ويمكن أن تعود ثانية

وبالنسبة لنا فعندما يغيب الضوء القصير

هناك ليل دائم واحد للنوم

كاتولوس

أعراف(1)

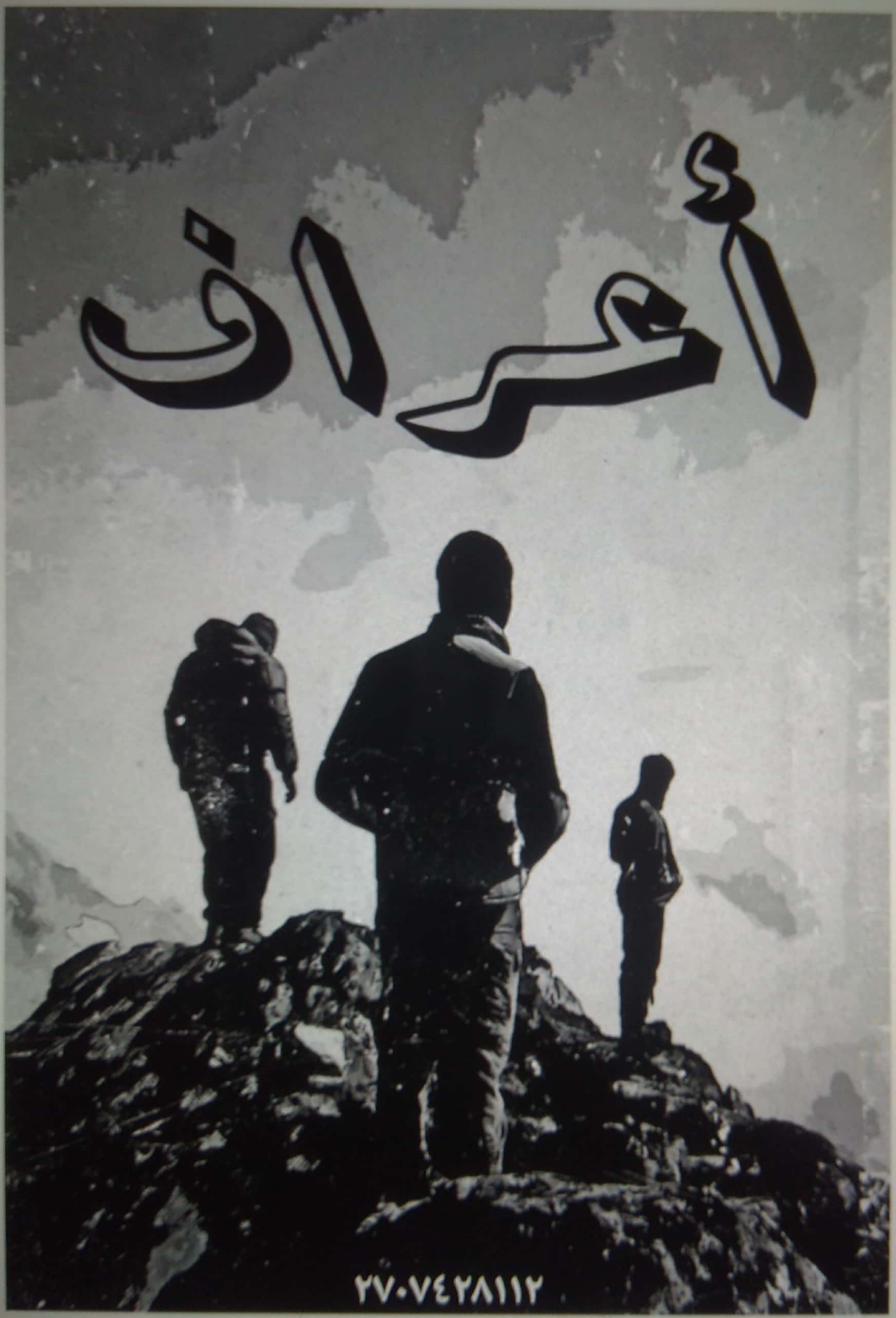
أعراف
٢٧٠٧٤٢٨١١٢

- سنغادر الفردوس..

- فأل الله ولا فألك..

- أقصد هذا المكان.. والآن..

قلتها وأنا أتأهب للوقوف والمغادرة، نقد صديقي الجرسون حسابه مع بقشيش، قال لي ونحن نجتاز الباب خارجين:

- توقعت مزيدًا من الجلوس.

قلت له:

- لا لزوم لذلك، لقد أكرمتني بعزومة العشاء تلك، وبعد الأكل والقهوة لا حاجة لي ببار الفردوس هذا، إنه من الأمكنة التي تحصد فيها الذنوب بشكل مجاني، وأنا أعرف نفسي وأعرف ذنوبي كما أخبرتك.

قال لي مبتسمًا:

- الله كريم يا أخي، بفرض تساوي ذنوب الفرد مع حسناته، هل سيدخل الجنة أم النار؟

سكتُ فسألني:

- أسألك رأيك؟

رددتُ:

- إنه سؤال محير ليس باليسير إجابته.

قال لي بثقة:

- بالعكس.

ابتسمتُ له وقلتُ:

- حسنا، فلتجب أنت.

قال بثقته نفسها:

- لو تساوت ذنوب الشخص وحسناته سيدخل الجنة بلا شك، الله كريم، أكرم مني ومنك ومن العباد كلهم، أعتقد أنك رأيتني وأنا أدفع للجرسون حسابه، تركت له بقشيشًا مجزيًا، فهل سيبخل الله علينا بالبقشيش والإكرامية؟ لا بكل تأكيد، من يحتاج حسنة سيحصل على اثنتين، ومن احتاج اثنتين سيحصل على أربع، وهكذا، وفي النهاية سندخل كلنا الجنة برحمته الواسعة.

سألته:

- بفرض كلامك صحيح، لماذا لم يدخل الشيخ عليش الجنة من البداية؟

رد:

- حتى يفهم، لو دخل الجنة دون فَهم سيكون مثل دابة، ولهذا هو لم يدخل النار أيضًا، المغزى من معجزته الفهم، الفهم المطلق للحياة، وإذا فَهِم ارتاح وعرف فائدة وجوده في هذه الحياة، أما أن تعيش كجماد غير مفيد فطريقة فاشلة لدخول الجنة بلا مجهود، فلو سكنا جميعًا في أماكننا وانتظرنا الموت لتوقفت الحياة التي لا بد لها أن تسير وتتحرك بلا توقف.

قلت له معلقًا:

- بغض النظر عن كل شيء، يعجبني يقينك.

قال مؤكدًا:

- إن يقيني حقيقة.

قلت له بهدوء:

- وماذا لو لم يكن حقيقة؟

رد:

- سيكون خرابًا مستعجلًا، لا أود تخيل ذلك، حينها سيقتضي على كل فرد دخول الجنة بمجهوده، وهذا مستحيل.

سألته مجددًا:

- لماذا تراه مستحيلًا؟

أجاب:

- ألا ترى مغريات الحياة؟ نحن بشر.. ضعفاء.. خطاؤون إلى حد لا يمكنني وصفه ولا يمكنك تخيله، لم يكتب لنا السمو على أنفسنا إلا لحظات، لولا رحمة الله لهلكنا بلا ريب.

قلت له:

- أتفق معك فيما تقول، لكن في جعبتي قصة أود قصها عليك، لقد وقعت بالفعل وليست من وحي الخيال، وأنت تعرف أني مثلك تمامًا لم أكذب عليك يومًا.

هزَّ صديقي المرح رأسه وقال:

- أرجو أن تكون قصة جذابة كقصة الشيخ عليش.

قلت:

- قبل القَصّ أطلب منك سماحًا، لقد تصنعتُ دهشة في بعض لحظات قصّك لحكاية الشيخ عليش، لكنك بالفعل حكيت لي ما لا أعرفه، وإن كنت على معرفة بالشيخ عليش بالفعل وقابلته في أحد أطواره.

نظر إليّ في جدية لا تناسبه، بينما نسير في طريقنا إلى بيته أكملت:

- سأحكي لك من البداية حتى تتمكن من استيعاب ما سأقوله، لا أرغب في

سرد متقطع أو متواز وغايتي ليست الاستعراض، بل أرغب في أن تصلك الحكاية بالضبط كما حدثت. في بلدنا نزلت من بطن أمي ولدًا، امتلأ البيت بالزغاريد، نشأت طفلًا عاديًا يحب اللعب ويكره المذاكرة، مضت السنوات وأنا مثل أقراني لا اختلاف بيني وبينهم، طفولة عادية لدرجة لا يمكنك تصورها، وكذلك المراهقة، الشباب، لهيت وكددت حتى أتى ذلك اليوم الموعود الذي متُّ فيه ولم أكمل الأربعين بعد.

كان صديقي منصتًا لي فمضيت:

- أصابتني سكتة فتوقف القلب وتصلبت الأعضاء وانهار الجسد لأقع عن الكرسي، التم حولي بقية الموظفين، أبلغوا أسرتي في البلد وشُيعت جنازتي ووارى جثماني الثرى، ثم افترق الناس والحزن ما زال يسكن قلوب بعضهم، بقي الجسد في المقبرة بينما صعدت الروح إلى السماء، طرقت باب الجنة طمعًا في الدخول فمنعني حارسها حتى صدور صحيفة الحساب، انتظرت مدة لم أستطع تحديدها ثم نودي على اسمي.. فلان ابن فلانة، رفعت يدي فأُشير لي بالقدوم فقمت، قال لي: "ليس في الجنة موضعٌ لك"، تألمت، عرفت أن النار مصيري، فقال: "ولا في النار موضع لك"، فاحترتُ في أمري وصحتُ شاكيًا.. سائلًا، فقال وهو يشير لي على مكان: "ليس لك موضع هنا إلا هذا"، نظرت فرأيته جبلًا، حملت همي وجلست، كنا كثر، كل منا جالس في حاله، جاء حظي في الجلوس جوار عليش، تجاورت روحانا وكان كل منا في شروده، قطعت الصمت قائلًا له:

- الطقس هنا ليس سيئًا.

نظر إليّ طويلًا ثم قال:

- وليس جيدًا.

قلت له:

- ليس هناك عذاب في هذا الموضع.

بنظرته نفسها قال:

- وليس هناك نعيم.

قلت:

- أفضل شيء هو عدم الشعور بالجوع والعطش.

محتفظًا بنظرته قال:

- الأفضل منه هو الشعور بالشبع والارتواء.

قلت:

- لكني لا أشعر بالندم.

قالها وهو يشيح بوجهه عني:

- ولن تشعر بالرضا.

سألته:

- ما اسم هذا المكان؟

فرد بلهجة خافتة:

- في حدود علمي.. الأعراف.

سألته:

- ما اسمك؟

رد:

- عليش.

سألته من جديد:

- ماذا فعلت لتستقر هنا؟

أجاب:

- أود تنبيهك أنه لا استقرار هنا، الحالة على الأعراف انتظارية، أما ما فعلته هو أنني لم أفعل شيئًا، لم أجابه الشر.. لم أبارز الرذيلة داخلي، رغبت في الجنة دون خوض المعركة الطاحنة التي على إثرها يدخل المرء الجنة أو النار، لقد أخطأتُ واخترتُ أسهل الطرق سبلًا للجنة، فلم يكن لي مكان فيها، فاتجهتُ إلى النار ولم أجد لنفسي مكانًا أيضًا، طُلب مني الانتظار هنا، على الأعراف.

سألته:

- وإلى متى ستظل منتظرًا؟

رد:

- لو أعرف لأخبرتك، اللـه وحده يعلم.

سكت للحظة لكن شيئًا ما دفعني لأسأله:

- طيب.. منذ متى وأنت منتظر؟

رد بنفاد صبر:

- لا أعلم.. نحن خارج الزمن المتعارف عليه.

قبل أن أسأله مزيدًا من الأسئلة نودي اسمه، قام ولم أره أو أسمع عنه مجددًا إلا في قصتك يا صديقي الذي لم أعهدك تتحدث بجد إلا حينما حكيت لي عن الشيخ عليش وحكايته.

***

ساد الصمت طويلًا بينما نقطع الطرق سيرًا، كان صديقي قد اتخذ وقارًا غير معتاد لي، مشى عاقدًا يديه خلف ظهره، وصلنا إلى بيته، دعاني للصعود فاعتذرت لتأخر الوقت لكنه أصر قائلًا:

- لم ننهِ حديثنا بعد.

فتح صديقي الباب وأضاء النور، ارتميت على أقرب كرسي بينما دخل إلى المطبخ ليعد لنا الشاي، ومع عودته بصينية عليها كوبان من الشاي، وقبل أن أرشف منها شيئًا قال:

- من يتح له العيش مرتين يكن صاحب كرامة، أنت أيضًا مبروك كالشيخ عليش، فما حدث لكما لا يحدث لأي إنسان.

- هذا ما تعتقده، أما أنا فرأيت على الأعراف كُثرًا.

قال راغبًا في توضيح:

- تريد أن تقول إن حولنا من يعيش حياته الثانية؟

- هذا مؤكد بالفعل.

قال محاولًا إعادة بسمته الدائمة إلى وجهه:

- لو شربت معي لقلت عليك ثملًا بلا شك، لكن الخمر لم يزر فمك.

سكت لوهلة فقلت:

- فكرت جديًا في عدم إخبارك، لكني تراجعت وأعلمتك بكل شيء.

قال محاولًا نفي تهمة الكذب عني:

- أعرف جيدًا أنك لا تكذب عليّ، الأمر برمته أن ذهني لا يستطيع الاستيعاب، وهذا منطقي وطبيعي فما تقوله يتجاوز إدراكي.

- وإدراكي أنا الآخر.

- هل تسمح لي ببعض الأسئلة؟

- طبعًا، وإذا كانت لدي الإجابات فلن أبخل بها.

- هل أنت كالشيخ عليش؟

- لم أفهم قصدك.

- أقصد هل سلكت أسلوب حياته نفسه في حياتك الأولى؟

- على الإطلاق، عشت كغيري، أخطأت وأحسنت وتبت ثم أخطأت وأحسنت وهكذا.

- إذن ما سبب العودة إلى الحياة مجددًا؟

- تختلف الأسباب من شخص لآخر حسب اعتقادي، حالتي كانت تساوي الذنوب والحسنات. في حقيقة الأمر الذنوب كانت أكثر لكن الحسنة بعشر أمثالها وهذا ما جعل الكفتين متساويتين، لم ترجح إحداهما وتغلب الأخرى مما أدى إلى إلغاء حياتي الأولى واعتبارها كأن لم تكن، عدتُ إلى الأرض لأعيش بجسمي نفسه وروحي وكياني الأول لأعيد الامتحان ثانيةً عسى أن تنتصر الحسنات هذه المرة؛ فأدخل جنة الخلد.

- وأُلقيت في الدنيا من جديد؟

- بالضبط، بعين ثيابي وهيئتي.

- إنها معجزة.

- العالم ممتلئ بنا، لكننا لا نقدر على البوح، سنُتعت بالمجانين ولن يصدقنا أحد، في هذا العالم من رأى الأطباق الطائرة بأم عينيه ولم يقدر على القول، كذلك من هو قادم من الغد، ألا تعتقد أن هناك مسافرين عبر الأكوان؟ المعجزات

تحدث ولا يصدقها أحد، والأسرار تملأ الأرض والكواكب الأخرى، عما قريب سيزور الإنسان القمر في رحلة سهلة أشبه بالذهاب إلى دولة أخرى.

- ولماذا للناس لا تُصدّق؟ أهو انعدام بصيرة؟!

- في حياتي الأولى كنت سأجيبك بنعم، لكن الآن لا، الإنسان العادي في حياته الأولى غير مُطلع، يفكر بالطريقة الأرضية وهذا منطقي بالطبع؛ لأن روحه لم تفارق جسده وتهيم في فضاء بلا نهاية، لم تكسر الحواجز وتتجاوز سرعة الضوء، لذلك هو انعدام تجربة لو أُتيحت لصدّق الإنسان كل شيء، واستوعب عقله التجديد، وهضم جوهره الاختلاف.

ساد صمت مختلف، بدا صاحبي يحاول تقبل الأمر، قطعت السكون المخيم بحركة يدي لتناول الكوب وأخذ رشفات متوالية، نبهته لبرودة الشاي فتجرعه مرة واحدة، بينما وضعت كوبي وما يزال نصفه ممتلئًا، فأنا لا أحبذ الشاي البارد، لطالما أشعر ببرودة شديدة داخلي وحولي، لم ألتمس دفئًا بعد.. أتمنى ألا تطول هذه الحالة.

أخرجت دفترًا أخضر أشبه بالأجندة من جيبي، سلّمته لصديقي فقلبه بين أصابعه وفتحه. منذ بدأت حياتي الثانية سجلت في هذا الدفتر الذنوب والحسنات باليوم، قسّمت الصفحة الواحدة إلى نصفين بشكل طولي؛ الجانب الأيمن "الحسنات" والجانب الأيسر "السيئات"، هكذا أسجل يوميًا ما لي وما عليّ، ظل صديقي يتصفح الدفتر لمدة ثم سألني وهو يعيده إليّ:

- هل تعلم من منهم انتصر على الآخر؟

- لم أجرؤ قط على العد، وإن حاولت دومًا فعل الخير كي أمكّن نفسي من الانتصار.

- أعتقد الخير سهلًا، يكفي ألا تفعل الشر.

- ليس بشكل مستمر، إذا هربت من الشر ولم تواجهه تكون كالشيخ عليش، أما مواجهته ورفضه فهذا هو النصر الحقيقي.

- وماذا عن قوله تعالى: "الحسنات يذهبن السيئات"؟

- لا يتعارض مع ما أقوله لك.

- إذن هذا باب عظيم للنجاة.

- بالطبع، لكن من يفعل المعروف في الوقت المناسب؟!

- وهل للمعروف وقت؟

- لكل شيء وقته.

شرد صديقي كأنه يفكر في أمر مستحيل وسأل:

- هل تعتقد بإتيان يوم يعرف فيه المرء موعد وفاته؟

- سيأتي، لكن تيقَّن وقتها أن المعرفة لن تفيد بشيء.

- ماذا تقصد؟

- تموت رغبة الإنسان بالمعرفة، حِبَّ امرأةً، اعرفها حق المعرفة وستموت رغبتك فيها، وبالقياس على الموت، بمجرد معرفة موعده فإن أجل الإنسان الحقيقي قد حان.

- أصبح كلامك لغزًا عسير الفهم.

ابتسمت وقلتُ:

- إذن دعنا نترك ما لا تفهم.

- وفيما نتحدث إذن؟

قلتُ ساخرًا:

- لنتحدث عن الطقس وبرودته الدائمة حتى في ليالي الصيف، لنتحدث عن كرة القدم، أو عن انتخابات النقابات العمالية في مملكة النرويج.

- أرى أنك أخذت مني حس الدعابة الذي أتميز به.

أكملت بالنبرة نفسها:

- قليل منها لا يضر.

لاحظ صديقي امتلاء أغلب الكوب أمامي وأنني لم أشرب الشاي لعدم لحاقي به دافئا فقام داخلًا إلى المطبخ قائلًا:

- سأعد لنا قهوة بدلًا من الشاي الذي لم تشربه، ثفضِّلها سادة حسب ذاكرتي.

أومأت برأسي مؤكدًا لكن ظهره كان مواجهًا لي فلم يلحظ حركتي.

***

غفوت للحظات رأيت فيها حلمًا غريبًا، كان الشيخ عليش يجري بسرعة وهو يصيح: "اقترب.. اقترب!"، كنت جالسًا أمام بيت ريفي – ليس بيتنا - مرق من أمامي كالبرق، جريت خلفه حتى كدت أصل إليه وأنا أناديه تارة بعليش وأخرى بعلوي وأخيرة بعليوة، التفت لي، لاحظته أعمى هذه المرة، كرر جملته:

- اقترب.. اقترب!

سألته:

- من اقترب؟

ردَّ:

- هو.

كنت أعي جيدًا أنني داخل حلم، لذلك فإن الغموض واجب في الأحلام، ولذلك

أيضًا تصرفت كما يجب أن يكون التصرف داخل الأحلام، سألته:

- من هو؟

قال مفسرًا:

- هو.. ثاني خالدي الذكر.

قالها وأكمل جريه مسرعًا، لم أقدر على الجري خلفه؛ لأنني استيقظت في هذه اللحظة على صوت ارتطام بالمطبخ، جريت فوجدت صديقي ملقى على ظهره، ساعدته في النهوض فقال لي مطمئنًا:

- لا تقلق، مجرد دوار بسيط.

عاونته للجلوس على أريكة الصالة وأكملت إعداد القهوة، شربت فنجاني ساخنًا أكثر من اللازم، إنها الحياة، خشيتك البرودة تدفعك إلى السخونة الزائدة، لن تحصل على الاعتدال أبدًا، وفي هربك من الأشياء ستقع في نقيض أكثر تطرفًا، صديق مرح خير من أخ رزين، غانية ظريفة أفضل من زوجة متحفظة، لذا لن تحصل على الكمال ولن ترتاح، ستضطر لكتابة كل شيء في دفترك وستخاف الحساب، سيلازمك تعب لن تتخلص منه طوال حياتك.

Telegram:@mbooks90

سألت صديقي:

- هل أنت بخير الآن؟

رد صديقي بثقل:

- الحمد لله، شعرت للحظة أنها النهاية.

- أعتقدها مجرد تهويمات من حديثنا.

- لا، الموت قادم. أنا أشعر به.

- صدقني هو دوار من أثر الخمر.

- ليست تجربة الشراب الأولى لي كي تلف الدنيا بي هكذا، يمكنني معرفة دوار الثمل وتمييزه عن آخر، لقد تاهت الدنيا عني للحظات تمهيدًا لكي أتوه عنها.

- هراء.

- أبدًا.

- دعنا من هذه المناقشة العقيمة، ستدخل لتنعم ببعض الراحة وستستيقظ في أتم عافية.

- حسنًا لكن بشرط واحد، لا تتركني.

- لك ما طلبت، سأنام هنا على الكنبة.

ساعدته حتى وصل لسريره، طلب مني مسكنًا للآلام، بحثت عنه ولم أجده، أخبرني بصوته العالي أنه يضعه على أحد الأرفف وبينما أحضره لاحظت خطابًا عليه طابع من أقاصي الصعيد، أعطيت صديقي الدواء ووضع جنبه تمهيدًا للنوم بينما عدتُ وأمسكتُ بالظرف، أخرجتُ الخطاب وقرأته، كان الخطاب الذي أرسله الشيخ عليش لصديقي وإن وقّع عليه باسم الشيخ عليوة، كان خطه عذبًا جميلًا يُعلن فيه وصوله إلى ملاذه الآمن، هناك يعلّم الأطفال ويبصرهم الفرق بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة، بدت كلماته راضية مطمئنة، وضعت الخطاب على الطاولة ومددتُ جسمي بما يناسب طول الأريكة وأغمضت عيني مستسلمًا لنوم متقطع، أقوم كل فترة وأقف عند مدخل غرفة صديقي، أسمع صوت تنفسه المنتظم فأطمئن لكونه بقيد الحياة، ألعن مخاوفه التي صوَّرت له قدوم الموت، أشعر بحلقي جافًا فأسمح لبعض الماء بالنزول ليأخذ شكل الكوب فأشرب وأعود إلى مكاني محاولًا إتمام ساعة من النوم دون انقطاع، فلقد قاربت الشمس على الشروق.

أدور مع الفلك في ظلام دامس، أرتفع كطائر تحدى الجاذبية وحلّق بجناحيه

بعيدًا عن الأرض، أتماهى مع هذه الخفة الحلوة وأشعر بدفء غير معهود، يعجبني الحلم فلا أرغب في إنهائه لكن مع الابتعاد المتزايد عن الأرض يمتلكني خوف من السقوط، أتحسس جيبي فأجد دفتري قد احتل مكانه المعتاد، أشعر بالطمأنينة، لا مجال للخطأ الآن، كل شيء مرصود بدقة ولا مجال لجلسة جديدة على الأعراف أو عودة ثالثة للحياة.

كانت الساعة العاشرة عندما صحا صديقي الذي يبدو من عينيه حصوله على قسط عميق من النوم، بدا في أتم صحة حين هزني برفق لأستيقظ لكني لم أفعل، سبقك الموت يا صديقي الذي لقَّبك الشيخ عليش برضوان، استشعر صديقي شيئًا غريبًا فيّ، أمسك بيدي ورفعها ولما تركها هبطت بمفردها، اقترب واضعًا أذنه على قلبي فبان من فزع وجهه عدم سماعه شيئًا، نظر إليّ بأسى، همهم قائلًا:

- أخبرتك أن الموت قادم، شعرت به حولنا.

ابتلع ريقه ثم أكمل:

- يبدو أنه أخطأ، كنت أعتقده يريدني.

وقف صديقي للحظات منتصبًا، رفع يديه وقرأ فاتحة الكتاب ثم مسح بيده على وجهه، أعلم جيدًا استحالة إعطائه إشارة برؤيتي له؛ لذا استسلمت تمامًا، بدا متخبطًا لا يدري كيف يتصرف، انسابت منه بعض الدموع، أعطى الموت للمشهد مهابة واضحة، لو لم يكن يتسيد الصورة لما تجهم صَديقي ولما ثبتُّ مكاني، اقترب مني وعدَّل موضع الجسد على الأريكة، أنزل بأصابعه الجفنين، ثم ابتعد وجلس ينظر إليّ بعمق طويلًا، ما زلت قادرًا على رؤيته حتى بعد إغلاقه لعيني، قام من مكانه ثانية، مدَّ يده في جيبي؛ ليأخذ الدفتر، فتحه، أحضر ورقة وقلمًا، بدأ في فرز الحسنات والذنوب، لماذا العجلة يا صديقي والقيام بعمل الملائكة؟ من حسن حظي أني لم أرَ النتيجة التي كان يدونها في ورقته

المنفصلة، بعد فترة انتهى، نظر إليّ متأزمًا فاستنتجت الفائز، لاحظت عليه أمارات التفكير، كتب في ورقته شيئًا ما، لم أره وإن خُيل لي أنه رقم، نظر إليّ وقد ابتسم وجهه وقال:

- لا مزيد من الأعراف حسب حكمك وفرزي، وضرب الحسنة في عشرة أمثالها، والآن يبقى الحكم النهائي لملائكة السماء بالقبول أو الطرد الدائم من الفردوس.

---

(1) **ملخص ما سبق:** اصطحبني صاحبي المرح إلى بار الفردوس، أراد طلب الشراب لي، فرفضت وأخبرته أن ذنوبي قد فاضت، وإذا أراد إكرامي فليطلب لي عشاء، ففعل ثم بدأ في قص حكاية الشيخ عليش الرجل الصالح في بلدهم الذي توفى فبُنى له ضريح هناك، بعد وفاته بمدة رآه صاحبي في هذا البار، تعجب صاحبي بشدة، حكى له الشيخ عليش أنه حين مات وصعد إلى السماء، طرق باب الجنة فأُعلن إليه أنه ليس من أهلها، ذُهش، الشيء نفسه حدث حينما طرق باب النار، عرف عليش أنه لم ينتصر خلال حياته على الشر بل هرب من المعركة بعدم مواجهته، هذا ليس حلا لذا فليس له موضعًا في السماء، هبط إلى الأرض ثانية، أخذ يصرخ "الفردوس.. الفردوس"، دله أحد المارة على بار الفردوس حيث قابل صاحبي الذي سقاه الشمبانيا وعرفه على إحدى الغانيات، سأله صاحبي عما ينوي فعله فقال عليش إنه ينوي مواجهة الشر، غادر صاحبي البار تاركًا عليش ولم يذهب إلى هناك لمدة طويلة ولما عاد وجد عليش قد تحول إلى علوي حامي الراقصات وأصحاب الكباريهات، وحينما سأله صاحبي عن مواجهته للشر أيقظ داخله الرغبة القديمة في ذلك، عاد صاحبي إلى بلدهم لحضور فرح فوجد ضريح عليش قد أصبح مزارًا للناس الذين يقصدونه طمعًا في كراماته التي يرونها حقيقية، عاد صاحبي واتجه إلى علوي ببار الفردوس؛ ليخبره بذلك ولم يجده، بحث عنه ووجده في حي السيدة زينب، فُتن علوي بمُدرسة كالملاك، صدم حين عرف أنها مخطوبة، لكنه قرر أن ينقذها من طريقه ويبتعد، بعد وقت جاء لصديقي خطاب من أقاصي الصعيد، كان من علوي، يخبره أنه فتح كتابًا بمنطقة نائية وأنهى خطابه بإمضاء الشيخ عليوة، سألني صاحبي عن حكمي على القصة فقلت إن الحكم للملائكة لأنه سيصعد لهم هذه المرة بملف زاخر.

جريمة الماضي(1)

جريمة الماضى

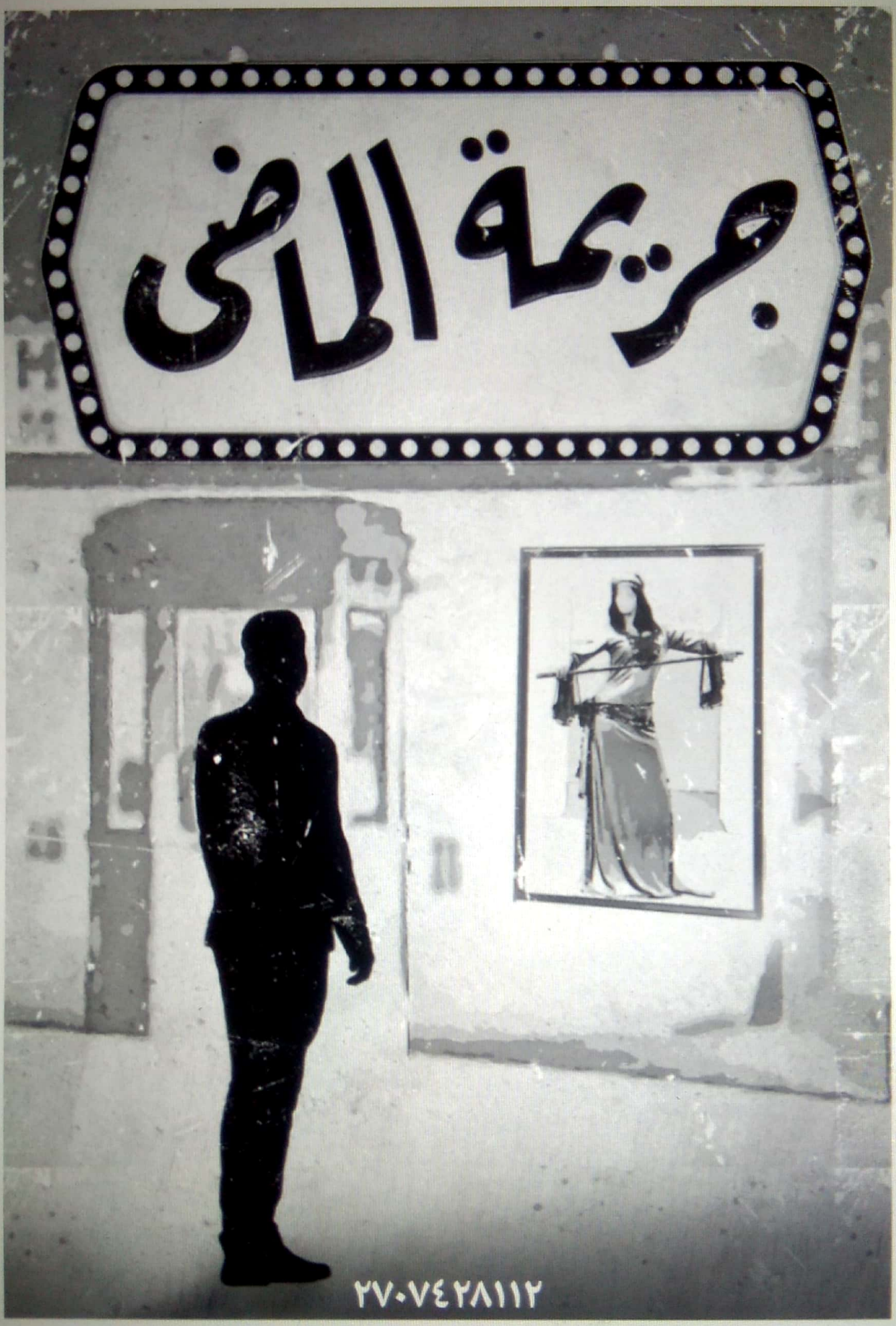

٢٧٠٧٤٢٨١١٢

الفصل الأول

كوابيس

1

لم يقوَ عباس على النوم. "جميلة ماتت وأنا السبب"، قالها لنفسه وهو يرتعش. نهض من سريره وسكب الكونياك وتجرعه دفعة واحدة، كأسًا تلو الآخر حتى أغلقت عيناه، لم يثقل عباس في الشرب لهذه الدرجة من قبل، لو أن السُكر درجات فهو في الدرجة الأقصى بالطبع. ما زال جسده يرتعش، يتصبب عرقًا، لو رآه شخص ما لظنه قادم من أسفل المطر للتو، عباس ليس مجرمًا ولا قاتلًا، لذا كان اتهامه لنفسه بالاشتراك في موت جميلة قاسيًا عليه، نابعًا من شعور داهم بالذنب، هو – عباس – لم يكن يرغب في أكثر من تسلية تحولت إلى سحر بخطابات جميلة ثم أفاق من النشوة على كارثة حقيقية، من يتخيل أن تستيقظ كوم النحل غدًا على هذا الخبر المشئوم، ومن سينتظر للغد، لقد دق جرس الكنيسة معلنًا الموت، سيجري الناس متسائلين من مات؟ سيقول أبوها إنها ماتت موتة ربنا لكن الحق إن جميلة ماتت موتة البوسطجي. عمل عقل عباس وضميره بكل ما استطاعا من طاقة، وضعا له كل الاحتمالات مما أكد له أنه لولا فتح الخطابات ما ماتت جميلة، ولولا إهماله وختمه للخطاب نفسه لكانت جميلة استطاعت معرفة العنوان الذي انتقل إليه خليل، سكت عباس ثم حدث نفسه قائلًا "بس حسني برضه عنده حق، لو ربنا رايد جميلة متموتش كان مد في عمر أم أحمد ومكنتش ماتت قبل ما تستلم جواب خليل الجديد"، يرد عليه العقل لائمًا "متزعلش نفسك يا سي عباس، أنت وعزرائيل وسلامة مشتركون في الجريمة.. سينقسم الوزر عليكم بالتساوي"، يسأل عباس نفسه "طب والجدع اللي اسمه خليل، مش شريك معانا؟! وجميلة نفسها الله يرحمها هي كمان غلطت"، برحمة من الكونياك يعتم الذهن فلا يرد على عباس، ليتمكن أخيرًا من الغفو.

نام البوسطجي وماتت جميلة..

استيقظ عباس على يد تنقر بابه، كان الطرق ضعيفًا واهنًا كأنه من يد عاجز، حاول عباس القيام لكن جسده كان مشلولًا، استمر الطرق بالوتيرة نفسها وعباس مسطح على السرير بلا حراك، بدأ الصوت خافتًا خائفًا يصل إلى مسامعه:

- الحقني!

إنه صوت جميلة الذي لم يسمعه أبدًا، لكنها ماتت، كيف يمكنها إذن تحدي الموت؟ هل أتت روحها لتعاقبني على فعلتي؟! قال البوسطجي متوسلًا:

- سامحيني يا جميلة.

- الحقني..

ظل الصوت مثلما هو وإن زاد إلحاح الطارق، قال البوسطجي بنبرته نفسها:

- والله في قوة أكبر مني منعاني أقوم.

- الحقني.

ظلت جميلة تلح وعباس يتوسل حتى سمع خطوات أخرى تقترب، خطوات ثقيلة تقبض الروح، ورسم خيال عباس المشهد بالخارج وتصور جميلة تُخنق بأيدٍ غليظة لا تعرف الحب.

2

حرام تموت جميلة ويظل آخرون يستمتعون بالحياة، قالها عباس لنفسه بعدما اختفى صوتها واستبدله السكون بقسوة وكآبة معلنًا الحداد، يرى عباس العمدة لا يستحق الحياة، ليس هو فحسب بل هناك آخرون لو أراد عباس كتابة أسمائهم لاحتاج مجلدات.

شعر عباس بجسده حرًا، قام من مكانه وشرب من القلة، وقف للحظات، لم

يمتلك الشجاعة ليفتح الباب ويرى جثة جميلة، عاد إلى سريره ليبدأ في سماع الطرقات نفسها، ثم لحقت به توسلات جميلة المتوالية التي لا تتوقف إلا بموتها من جديد، تكرر الأمر عدة مرات، جن جنون البوسطجي فيها، فحالة الشلل لا تزول منه إلا بعدما تتوقف الاستغاثة، ويتكرر الموقف...

"سلامة عقلك يا عباس، جميلة تموت على بابك مرة والثانية والثالثة ومتلحقهاش" قالها عباس لنفسه وهو ينتشج كطفل ليتوقف عن أي فعل ويقول بعدها "جميلة ماتت منذ فتحت الجوابات"، يتردد صوت حسني قائلًا "أنت غير مسئول.. موعد جميلة مكتوب منذ الولادة.. وتذكر أنها من أسقطت نفسها في هذا المأزق"، كما هي العادة.. كلمات حسني لها تأثير جيد يا عباس". يقوم عباس ويفتح الباب بيد مرتعشة فلا يجد أحدًا، يحدث نفسه "طبيعي يا بوسطجي الشوم، جميلة ماتت.. ارجع ونام".

نام البوسطجي وماتت جميلة..

نزل عباس من فوق ركوبته أمام أحد بيوت القرية، بيت لا يعرفه، ولم يمر أمامه من قبل وهذا الأمر غريب، فكوم النحل كلها بلد صغير وأي مشوار فيه فركة كعب، تجاوز عباس تعجبه وتقدم لهذا البيت الذي بدا كأنه نشأ فجأة في غمضة عين كبيوت الأساطير المهجورة التي تصيب زائرها بلعنة غير متوقعة، لم يخف عباس الذي قرر مزاولة عمله وأخرج من حقيبته الصفراء خطابًا معينًا، خبط الباب بيده فُفتح بسهولة، دخل عباس ليغرق في ظلام غريب كأن باب البيت قد انتقل به من منطقة لمنطقة زمنية أخرى، وبصوت جميلة المتكرر نفسه سمع البوسطجي:

- قول لخليل يلحقني..

نظر تجاه مصدر الصوت فلم يرَ شيئًا بطبيعة الحال، أخرج عود ثقاب وأشعله ليأكل به بعض الظلام المخيم، وجد عباس جميلة التي لا يعرفها تقابله، لم تكن

كما تخيلها، بل كانت ذات بشرة زرقاء باردة، بدا خوفها في قمته، اقتربت من عباس الذي حاول تمالك زمامه وقال:

- جواب..

مدت جميلة يدها وقالت:

- من خليل؟

هز عباس رأسه بالإيجاب فسألت:

- بيقول فيه إيه؟

رد عباس:

- المرة دي مقرأتش..

قالت جميلة:

- جاي تحافظ على الجوابات بعد موتي.

قال عباس مرتعشًا:

- سماح النوبة دي يا جميلة.. مش هكررها.

استيقظ عباس مفزوعًا وهو يكرر الجملة طالبًا السماح منها، ابتلع ريقه، حاول اكتساب بعض من تركيزه ليسترد شتات نفسه، لكن بدا له أنه لن يهنأ أبدا بنوم دون ظهور جميلة في كابوسه.

3

تحدى عباس نفسه، لم يغمض جفنه حتى شروق الشمس، فكر في الخروج لكنه شطب الأمر من رأسه، لن يقوى على الخروج، لن يستطيع السيطرة على انفعالاته وتجاوز موت جميلة بهذه السهولة. ظل البوسطجي جالسًا على الكنبة

المجاورة للشباك في حيرة، ولام نفسه ألف مرة على خيانة الأمانة وقراءة الخطابات، استغفر وتاب وقام وتوضأ وصلى ركعتين لربه، وحين قام من سجوده وجد جميلة واقفة أمامه؛ ليُفزع من جديد.

ذنبك لن ينمحي أبدًا، وستطاردك جميلة سواء نمت أم لم تنم؛ لذا قم ونم يا عباس، حتى لو آتتك جميلة في أقبح هيئة، حتى لو عذبك ضميرك أشد العذاب نم، نم وتمنَّ ألا تستيقظ أبدًا.

نام البوسطجي وماتت جميلة..

عباس على جسر القرية، عباس دون ركوبته والجسر رقيق كصراط لا سمك له، عباس يبدو للناظرين كمن يمشي على حبل، يلاحظ مارّ حركة عباس البهلوانية، في ثوانٍ ينادي أهل القرية الذين يهللون ويصفقون كمن رأوا مهرجًا، يهتف أهالي كوم النحل:

- ياعباس.. ياعباس.. بجوابك تايه محتاس..

يحاول عباس نهرهم، يقول في نفسه "هم ولد الرفضي دول عايزين مني إيه"، يظل عباس يحاول المرور سالمًا، لكن الجسر يطول، ليبدوَ بلا نهاية، وعباس مُصِرّ على إكمال الطريق، في لحظة ما يتوقف تمدد الجسر، يلاحظ عباس وقوف جميلة في نهايته وقد تعملقت وأصبحت بعين واحدة في منتصف الرأس، كانت تشير له بالقدوم، استيقظ عباس في اللحظة التي يبتلعه فيها حضن جميلة.

بطبيعة الحال كان وقع الكابوس وتأثيره على عباس أخف، بدأ في اعتياد النوم بكوابيس، إنه الثالث ومتوقع ألا تنتهي أبدًا وعليه تقبل الأمر، كما عاش تحت مظلة خطابات جميلة وخليل لفترة وانشغل بهما، واتَّحد بقصتهما وانتظر كل خطاب متمنيًا لهما انتهاء الحكاية على خير، يجب عليه دفع الثمن، والثمن معروف واضح لا فصال فيه، راحته ونومه، مثلما مرت فترة الخطابات عليه كلمح بصر ستمر عليه فترة موت جميلة كجبل وعليه تقبل الأمر بصدر رحب،

عليه الاستمتاع بالكوابيس وتسجيلها، الرفاهية الوحيدة أمامه هو اختيار نوع القلم الذي سيوثق به أحلامه المزعجة، إما أن يختار قلم كوبيا كالذي كانت تستخدمه جميلة أو قلم حبر مثل خليل، توالت الكوابيس خلال الأيام التالية، رغم ذلك لم يجرؤ البوسطجي على مبارحة البيت، لم يكلم أحدًا، والغريبة أن أحدًا لم يتذكره لأربعة أيام متصلة، حتى طرق حسني بابه في الوقت الذي كان فيه عباس مستغرقًا في النوم محاولًا التأقلم مع كابوسه، حيث رأى خليل يمسك في خوانيقه بينما هو لا يقاومه، زاد حسني من طرقاته، لقد انشغل بشدة على عباس لكن كثيرًا من الأمور جرت عقب رنين جرس الكنيسة.

تحت إلحاح دقات الباب ترك خليل رقبة عباس..

استيقظ البوسطجي ولم تمت جميلة.

---

(1) عباس أفندي حسين بوسطجي كوم النحل لديه خلافات مع عبد السميع وهدان العمدة الذي يرغب في طرده من البيت الذي يؤجره له ويقدم بلاغات كيدية ضد عباس يحقق فيها حسني المعاون بعدما طلب منه ذلك حضرة المأمور، يتعاطف حسني مع عباس ابن القاهرة غير المتأقلم على العيش في قرية مثل كوم النحل، بعد هذا يرى بعض الفلاحين عباس يمزق الخطابات أثناء سيره بالحمار فيستغل العمدة ذلك ويشي بعباس للتحقيق معه حتى يتمكن من طرده، يتجه حسني إلى بيت عباس الذي يقص عليه وهو في حالة نفسية وجسدية سيئة سبب ما آل إليه، إنها حكاية أبطالها خليل وجميلة صديقة مريم أخت خليل في المدرسة بأسيوط، خليل وجميلة يحبان بعضهما بعضًا، وأثناء زيارة جميلة لخالتها بالنخيلة نشأت بينها وبين خليل علاقة غير شرعية أسفرت عن حمل جميلة، يخبر عباس حسني بأنه عرف قصتهما من خلال تلصصه على خطاباتهما كما يخبره أن آخر خطاب كتبت فيه جميلة لخليل على عنوانه الذي غادره "خليل.. الحقني"، وكان السبب في انقطاع الوصل بينهما عباس، الذي أثناء مشاداته مع غفير العمدة ختم بالخطأ على الرسالة التي قرأها لا الظرف مما منعه من تسليم الخطاب لأم أحمد العجوز التي كان خليل يرسل الخطابات على عنوانها حتى لا تنكشف جميلة أمام أهلها، يلاحظ سلامة آثار الحمل على جسد ابنته بينما عباس يبحث عن جميلة وهو يشعر بالذنب، يفشل عباس في الوصول لجميلة فيسوء أمره ويصل إلى هذا الحال، يخفف عنه حسني قائلا له إنه ليس مسئولًا عما حدث ويطلب منه إخفاء كل ما يعرف، في الوقت الذي يدق فيه جرس

كنيسة البلد الصغيرة إشعارًا بموت أحدهم.

الفصل الثاني

موت غير متوقع

1

بدا عباس كمصاص دماء، أغلق على نفسه أيامًا ولم يسأل عنه أحدٌ، في الفترة الأخيرة كان الناس قد تعودوا على غياباته الكثيرة، كان البدل يأتي من أسيوط لتغطية غيابه وتوزيع الخطابات المركونة، أما في الأيام الفائنة فقد حدثت أمورٌ كثيرة، وخيّم على البلد بأكملها الحزن، هكذا قال حسني لعباس ولم يوضح، منتظرًا سؤالًا يطلب فيه البوسطجي معرفة آخر الأخبار.

- حصل إيه تاني يا حضرة المعاون؟

قالها عباس وهو يعد كوبي الشاي.

تنهَّد حسني، سببت له نبرة البوسطجي الحيرة، لم يعرف إذا كان صبره قد نفد أم أنه أصبح غير مكترث، قال المعاون:

- هو أنت لسه مدرتش؟

- أنا بقالي أيام مخرجتش ولا شفت حد.

سأل المعاون:

- مش عايز تعرف صاحبة الجوابات؟

سخر عباس قائلًا:

- مش هتفرق، كان نفسي ألحقها قبل ما تموت.

قال حسني بلهجة أكثر جدية:

- ومين قال إنها ماتت يا بني آدم؟!

تنبه عباس، ترك كل ما في يده، اقترب من حسني قائلًا:

- فهمني قصدك إيه؟

قال حسني مبتسمًا بعدما نجح في إثارة فضول عباس:

- المعلم سلامة هو اللي مات.

أخبره حسني أن القرية أغلقت أبوابها ثلاثة أيام حدادًا عليه، وهذا يتناسب مع مكانته بالفعل.

انفرجت أسارير عباس، إذن حين أعلن جرس الكنيسة موت أحدهم لم تكن جميلة، كان المعلم سلامة، إذن جميلة بقيد الحياة، هناك فرصة لإنقاذها بعدما خطف الموت رجلًا لا شأن له بالقصة.

قال حسني:

- ابنة سلامة اسمها جميلة.

اضطرب عباس، لم يكن يعرف تلك المعلومة، إذن فالموت اصطحب سلامة؛ ليخرج من حسابات القصة بعدما كان طرفًا مهمًا في معادلتها، جهلك بالبلد وأهلها بلا حدود يا بوسطجي الغَبرة، تحسب نفسك غريبًا عنهم، آل يعني من طينة تانية، حتى عندما اندمجت في قصصهم كنت تنظر إليها من الأعلى، لم تندفع إلا لجميلة، ويا ليت اندفاعك كان لصالحها، لم تكن حلقة الوصل، لقد قطعت الرابط بينهما، قتلت علاقة كتب الله لها نموًا في رَحم جميلة، مهما حاولت التنصل من المسئولية فأنت أمام نفسك مسئول ولا مجال للهرب.

2

قبل أيام خرج حسني من بيت عباس حاملًا قصة وحفنة من الخطابات متجهًا صوب كنيسة كوم النحل الصغيرة بعد دقائق قليلة سيعرف من جميلة صاحبة القصة، للحق فإن حسني كان يفكر منذ أن بدأ عباس يحكي له القصة،

حصر جميلات كوم النحل، هن ثلاث، أولاهن طفلة لم تتجاوز الثامنة، إذن فهي مستبعدة، وثانيتهن مراهقة استبعدها حسني؛ لأنه لم تغادر البلد أبدًا، أما الثالثة فهي ابنة سلامة، واحد من أعمدة كوم النحل، هي جميلة بنت سلامة دون شك، البنت دي مكتوب لها تفسد من يوم ما قرر أبوها يبعتها المدرسة في أسيوط، مين قال إن البنات دول لهم العلام، هز حسني رأسه مؤكدًا قوله وهو يسير، ظهر كتف الكنيسة القبلي أمامه، أسرع الخطا حتى وصل، هناك عرف أن جميلة لم تمت، وأن من ثُوفيَ هو المعلم سلامة والدها، مسكين ذلك الرجل، لم يتحمل خطيئة ابنته، لو كنت مكانه لقتلتها، بالتأكيد جال هذا الفكر خاطر المرحوم، لكن جسده لم يقدر على التنفيذ، وقلبه لم يقو على كره جميلة، في الأول والآخر هي ابنته، حتى لو دنست نفسها وسلمت الجسد إلى شاب أهوج، أما قصة صحيح تاخد من وراها العِبَر! عباس المغفل مشيّل نفسه الهم على الفاضي، المسكين بعد شوية من سماع صوت جرس الكنيسة انهار وتشنج، كأن جميلة هذه أخته شقيقته، عموما ابسط يا عباس، جميلة ما زالت حية كقطة بسبعة أرواح، ورقة عمرها لم تسقط بعد، أما سلامة فورقته ذبلت فقطفها ملك الموت، على الله ما تحمل نفسك ذنب موت سلامة هو الآخر، أنا عارفك يا عباس تجري على الحزن بالمشوار.

في الأيام التالية انشغلت القرية كلها بعزاء سلامة، وانشغل حسني بكثير من العمل، فقد أشرف على فتح بيت أم أحمد لصالح بعض الورثة بعيدي الصلة، حقق في بعض بلاغات أهل البلد المقيتة.. فلان سُرقت بهيمته، وآخِر مداسه وهكذا، كما كلفت كل البلاغات التي قدمت ضد عباس وكان وراءها العمدة بالطبع، بعدما انتهى ضغط العمل شعر حسني بأنه لم ير عباس منذ مدة، سأل عنه فأخبروه أنه غائب، طبعًا استغل العمدة الغياب وأرسل بعضًا من رجاله؛ ليقدموا بلاغات بتقاعس بوسطجي كوم النحل عن العمل وإهماله توصيل الخطابات، يستغل العمدة كل مناسبة للصيد في الماء العكر، يرغب في طرد عباس من البيت بأي شكل، تحرك حسني لبيت عباس؛ ليعرف ما حلّ به منذ أن دق جرس كنيسة كوم

النحل النحاسي.

3

- أنت متأكد؟

سأل عباس رغم سماعه لحسني جيدًا، سأل كي يطمئن، سأل كي يسمع الإجابة نفسها مجددًا، رغب في سماعها مئات المرات، لم يُخيّب حسني ظنه وقال:

- زي ما قولتلك، سلامة مات وشبع موت.

زال من فوق عباس همه، انزاح عن صدره الجبل الذي أثقله طوال الفترة الماضية، تمكن من التنفس بشكل طبيعي أخيرًا، حتى الهواء الذي ملأ رئتيه هذه المرة لم يكن هواء كوم النحل الثقيل، لقد حييت جميلة، حييت بعدما قتلها بتدخله، لكن يمكنه القسم والحلفان مائة يمين أنه لو تصور للحظة أن يحدث هذا كله ما فعل، لتمنى أن تُشل يده قبل فتح جواب واحد، وتمنى أن تُشل قدمه قبل أن تدب على هذه الأرض.

يتساءل عباس:

- العمل إيه دلوقتي؟

- عمل؟! أي عمل؟!

يسكت حسني ثم يكمل محاولًا استنتاج شيء من كلام عباس:

- تقصد البلاغات ضدك يعني؟

لا ينتظر حسني ردًا من عباس، يقول محاولًا طمأنته:

- اطمئن، أنا خلصت كل حاجة والتحقيق اتفقل خلاص.

قال عباس باندفاع:

- مش ده قصدي، أقصد جميلة والواد اللي في بطنها.

تتحول تعبيرات حسني إلى الغضب، يقول محذرًا:

- عباس.. ارفع إيدك عن حكاية جميلة دي، مجاش منها غير وجع الرأس.

قال عباس بتأثر:

- والله بودي، بس إزاي وإيدي اللي عايزه قطعها دي قطعت الوصل بين الاتنين؟!

تحدث عباس كثيرًا عن سقطته وكان كلامه غير مقنع لحسني الذي قال:

- السقطة سقطة جميلة، قولتلك ده قبل كده ولسه مصر عليه، أنت مش مسئول.

سكت عباس، كان يفكر في تنفيذ شيء ما، فطن حسني لذلك فقال له:

- لو ورطت نفسك في حاجة جديدة مش هقدر أساعدك.

هزَّ عباس رأسه مطمئنًا، فأكمل حسني:

- وبعدين أنت فايه ولا فايه؟! لازم تنزل شغلك وإلا تعتبر منقطعًا عن العمل.

- حاضر.

شرب حسني ما تبقى من كوب الشاي، قام من مكانه، ربت على كتف عباس، نصحه قائلًا:

- انسَ جميلة يا عباس، انسَ، صدقني هي قادرة تدبر أمورها، الدور والباقي عليك أنت.

رحل حسني تاركًا عباس الذي لم تزحزحه تلك التنبيهات المتكررة عن التفكير المطول في خليل وجميلة، يرى نفسه تطالبه بالتصرف، صحيح لا يدري كيف

يكفر عن جرمه، لكنه يرجو الوصول لطريقة مناسبة تقرب الحبيبين اللذين شتتهما فعلته.

4

كان عباس يقدم قدمًا ويؤخر الأخرى، بعد أن أخذ قراره، شرع في تنفيذه، تتعذر عليه الاستجابة لنصيحة حسني، وصل أخيرًا إلى بيت سلامة، قابله أحد الأقارب فاستأذن في مقابلة أم جميلة لتعزيتها، أتت السيدة المتشحة بالسواد، وبعد قليل من الجمل المناسبة لمثل هذه المواقف قال عباس:

- وجميلة إزيها، لعلها بخير؟

نظرت أم جميلة له بفزع لم تستطع مدارته ثم قالت:

- مالها جميلة؟ بخير، سفَّرتها عند خالتها في النخيلة.

سأل عباس بلؤم:

- مش غريب تسيب البلد في وقت زي ده؟

قالت أم جميلة بحسم:

- ولا غريب ولا حاجة، الغريب يا عباس أفندي أنك تسأل سؤالات زي دي، واجبك وصل.

أنهت السيدة الحوار ليجد عباس نفسه ضيفًا غير مرغوب فيه، رحل عباس إيد ورا وإيد قدام كما يقولون، ولم ينجح إلا في إثارة شك هذه السيدة بمعرفته بفضيحة ابنتها.

أثناء سيره فكر في الذهاب إلى النخيلة إلا أنه رأى هذا بلا جدوى حقيقية، في هذه اللحظة قرر الاستسلام، إلا أنه أيضًا عدل عن هذه الفكرة، لم تفعل شيئًا إيجابيًا، ذهبت للست وعزيتها، كنت عايز تقولها إيه يعني، أنا عارف أن بنتك

حامل، تخيل ألوان الطيف التي ستزور وجهها يا عباس، أنا بس بدي أقول لها عنوان خليل اللي تبعت عليه الجوابات، ما هو لازم يعرف كل اللي حصل، لازم يصلح غلطته ويتجوزوا وحمل البنت يظهر للنور، مين عارف، مش جايز تجيب سلامة الصغير وساعتها البيت ترجع له الفرحة من تاني، ابتسم عباس عندما تخيل ذلك وقال: "ساعتها مش عايز حاجة من الدنيا".

5

بعد هجر أيام، وطئت قدما البوسطجي مكتبه..

كان البدل قد قام بمهتمه على أكمل وجه، وزع كل الخطابات، تاركًا لي المكتب دون عمل، أوصاني على صحتي، ونصحني بالتركيز في العمل خلال الأيام المقبلة قائلًا:

- الشكاوي نازلة ترف، خد بالك، واضح أن اللي بيعزوك كتير أوي.

قال عباس ساخرًا:

- هو واحد وبيعزني فوق ما تتصور، الله يخرب بيته!

قهقه ضاحكًا، ألححت عليه لنتغدى معًا، كنت أود إكرامه فقد ساندني في الأيام الفائتة وحلَّ مكاني كثيرًا، اعتذر بلطف، فهو يرغب في تناول الغذاء مع زوجته وأطفاله، يا بخته له أسرة تهتم به ويهتم بها! في هذه اللحظة فكر في الزواج، كان مجردَ تفكير لم يجد صدى داخله لأكثر من دقائق.

في موعد الانصراف أغلق البوسطجي مكتبه، عاد إلى البيت ليجد العمدة قد أرسل غفيره طالبًا منه الحضور فورًا، اشتغل الغضب بعباس، قال بعصبية:

- أوامر العمدة دي تمشي على اللي يملكه، لو عايزني يجيلي بيتي.

تمتم الغفير:

- بيتك؟

رمقه عباس بضيق، تركه ودخل مغلقًا الباب في وجهه؛ ليرحل الغفير ناقلًا الحديث بالحرف إلى العمدة الذي تطاير الشر من عينيه، وذهب إلى عباس مقررًا طرده في الحال.

دب شجار عنيف بين العمدة وعباس الذي تسمر في مكانه وأبى الخروج، فما كان من العمدة إلا أن يأمر غفيره برمى بلاه على عباس، ثم اقتياده إلى الوحدة الصحية ليحصل على تقرير طبي بحالته، أرفقه ببلاغ لا يخر الميا على حد قوله.

6

"ساعة تاريخه بمروري من أمام بيتي المؤجر إلى ناظر بوسطة مكتب الناحية بلدنا، عباس أفندي حسين، لقيت المذكور أعلاه اتهجم على سويلم غفيري الخصوصي، ومرفق تقرير طبيب الوحدة الصحية والمكتوب فيه أن سويلم لازم له علاج أكتر من 21 يوم، وبذلك فقد ارتكب المذكور أعلاه جناية في حق سويلم الغلبان الذي لا حول ولا قوة له، وللأهمية مرسل سويلم إلى المركز؛ ليدلي بشكواه أمام سيادتكم...

عمدة كوم النحل

عبد السميع وهدان

انتهى حسني من قراءة البلاغ، سأل سويلم ساخرًا:

- فيه حد شاف الواقعة؟

تلعثم سويلم ثم قال:

- حضرة العمدة يا حضرة المعاون.

سأل سويلم مجددًا:

- وليه مجاش يشهد بقى؟

نظر له سويلم مستغربًا:

- العمدة يسيب اللي وراه واللي قدامه ويجي، ده مصالح البلد كلها في رقبته يا حضرة المعاون.

أخذ حسني أقوال سويلم ثم تركه يرحل، سأل سويلم قبل مغادرة المكتب:

- والجدع اللي اسمه عباس أفندي ده، هتسيبوه مطلوق علينا؟

قال حسني بحسم:

- ده شغلنا احنا.

قال سويلم:

- والله يا حضرة المعاون ما في حد في البلد بيطيقه، وهو على قلبه مراوح ولا حاسس، أنت عارف لما راح يعزي في المعلم سلامة كرشوه.

انتبه المعاون، طلب مزيدًا من الوصف، أخبره سويلم أن خادمة البيت رأت الست أم جميلة وهي تنهي المقابلة القصيرة بحسم وأبلغت خادمة العمدة، طبعًا تنقَّل الكلام حتى وصل إلى العمدة ذات نفسه، وكل طرف في دائرة الحكي يزيد بعضًا من المبالغة في القصة لتصبح بالإثارة المطلوبة، حتى وصل إلى أهل البلد كلها أن أم جميلة طردت البوسطجي شر طردة حين ذهب ليعزيها في زوجها. لم يهتم سويلم بهذا كله بقدر اهتمامه بسبب زيارة عباس لبيت سلامة، ترى ما الحوار الذي حاول عباس تجاذبه مع أم جميلة؟ هل لمح بشيء؟ الله يخرب بيتك يا عباس هتودي روحك في داهية! ظهر على حسني الضيق من تصرفات عباس غير المحسوبة. ترك حسني كل ما لديه وذهب لعباس الذي استقبله بحفاوة، كان حسني متجهمًا وحين سأله عباس عن السبب قال له:

- مُصر تغلط نفسك يا عباس، ليه زُحت لأم جميلة؟

قال عباس:

- غصب عني، دماغي متربّطة ومش شايفة غير جميلة، نفسي أساعدها.

قال حسني وهو ينظر إلى الفراغ عبر شباك البيت:

- الناس اللي هنا مش محتاجين مساعدتك، ولا مساعدتي، صدقني هما قادرين يحلوا أمورهم بمعرفتهم من غير تدخل من حد، كوم النحل دي ناسها زي النحل في اللسع، وخد بالك عين العمدة مفتحة عليك وواقف لك على كل تصرف، ده غير بلاغه الجديد اللي بيتهمك فيه بضرب سويلم غفيره.

صرخ عباس:

- المفتري! والله ما حصل.

قال حسني:

- أنا متأكد من ده لكن..

سكت حسني للحظات، أخبر عباس أن وضعه في البلد الآن أسوأ من أي وقت مضى.

الفصل الثالث
أحلام جميلة

1

قضت جميلة قبل وفاة والدها أيامًا عصيبة، تخيَّل كونك محكومًا عليك بالإعدام ولا تعرف موعد التنفيذ، لو تدري به، لو تستعد، كل ما تعرفه أنك ستموت، لكن متى، هذا هو السؤال الأهم، ترى جميلة نفسها ماتت حين نظر إليها والدها ورآها في هذا الوضع، تذكر نظرته حين شاهد بطنها الذي وصل الجنين فيه لشهره السادس، كانت عيناه تلمعان باللون الأصفر ووجهه مكتسيًا باللون الرمادي، لقد شاخ في هذه اللحظة سنوات، لو يعود الزمن لما فعلت هذا كله، كل ما رغبت فيه الزواج بمن تحب، خليل، فتاها الطيب المندفع الذي وعدها بأن تكون قرينته طوال العمر، لكن أي عمر؟! يغور هذا الزواج لو يرجع الزمن! تتمنى تكرار اللحظة التي نظر لها فيها والدها بفخر حين تخرجت من مدرسة مستر كارتر بأسيوط، الآن، بعد سقوطها في أحد فوراتهما – هي وخليل – لا تقدر على النظر مباشرة في عين والدها الذي لن يسامحها أبدًا، لو اكتملت الزيجة حين أتى خليل في زيارته الوحيدة لكوم النحل لكان كل شيء قد تغيَّر، لكن خليل لم يُحضر معه التصريح من كنيسته، يا ميلة بختك يا جميلة! مكتوب لك الشقى وتعب القلب، ومصيرك الموت بعدما تخلي عنك خليل، ولم يرد على خطاباتك، تعتقد جميلة أن الزهق تملكه، لم يعد جذوة حبه لها مشتعلة كما في البدء، أين إصرارك يا خليل؟! أراك فارس أحلامي الذي سيخطفني على حصانه الأبيض، لكن الحصان تحول إلى شيطان أرسلني إلى مستنقع الخطيئة، لم يرد خليل على خطاباتي، وزاد وضعي سوءًا بعد وفاة أم أحمد الذي كانت تطمئنها أن في أسوأ الظروف ستحاول مساعدتها في التخلص من نبتة رحمها، لكن الموت لم يمهلها لفعل ذلك، أبَى أن تنهي أم أحمد حياة ابن جميلة بهذه السهولة، تخلت أم أحمد عن جميلة رغم إرادتها عكس خليل الذي رحل، ولم يصارع للنهاية كما

Telegram:@mbooks90

وعد، اجتنى منها ما أراد راحلًا تاركًا إياها بين الفضيحة والموت، تركها تحمل الإثم وحدها، تركها في مواجهة حبيبها الأول الذي لم يحب أحد أكثر منها، تركها لسلامة الذي ضعق عندما رأى بطن ابنته المنتفخ، وقتها وعى سلامة أن ثمرته التي سهر على رعايتها نضجت واستوت وأكلت دون ثمن.

2

لم تعرف جميلة الراحة، ولم تستوعب كونها دخلت في طور الأمومة قبل الأوان، ولم تعِ الكيفية التي نشأ بها وتكون ذلك الجنين، من داخلها ترفضه رغم حبها لخليل، نموه في هذا الوقت يشعرها بالاختناق، كثيرًا ما فكرت وشغلها سؤال: هل استسلمت لخليل بدافع حب مشترك، أم إرضاء له، بشكل قاطع الإجابة الأولى هي الصحيحة، جميلة غير مضطرة لإرضائه بأي شكل، كانت تُرضي نفسها معه، وتحول الرضا إلى نقمة بمرور الزمن، وها هي تنتظر موتها بحسب الطريقة التي يرتضيها والدها. تنتظر الموت لا الستر، وكيف يأتي الستر في غياب خليل بلا مبرر يُذكر.

كانت جميلة تسمع صوت أقدام والدها تقترب من غرفتها، لتموت رعبًا ثم تتوقف الخطوات لفترة ثم تبتعد، خلال فترة التوقف تقوم جميلة بلعن نفسها كأنه نوع من الاستغفار، من بعدما اكتشف سلامة حمل ابنته لم ترَ وجهه قط، وقد قررت جميلة ألا تنظر له حتى وهو ينهي حياتها. على سيرة إنهاء الحياة كان سلامة في هذا الوقت منشغلًا، يعرف أن عليه قتل ابنته، لكن كيف، طالما استعد لقتل أي شخص يمس شعرة منها بسوء، إما الآن فهي مصدر السوء نفسه ولو لم يقتلها لأصبحت سيرته علكة تلوكها ألسنة الخلق، وغير مستبعد اكتشاف سر ابنته في أي لحظة، لا شيء يمكن إخفاؤه للأبد، لذا فعليه قتلها، ولو لم يفعل لأصبحت مصيبته مصيبتين.

تنام كوم النحل إلا أربعة؛ عباس، وجميلة وأمها وأباها، يشتركون في الهم نفسه، كل منهم يلوم نفسه على سقطته ويراها السبب الأساسي، عباس

البوسطجي الذي أفسد خطاب خليل، جميلة التي سلّمت جسدها لحبيبها، أمها التي ترى نفسها قصرت في تربيتها والإشراف عليها، والدها الذي أرسلها إلى المدرسة ففسدت وعادت تحمل العار.

3

سادت بالبيت كآبة شديدة، فكرة الموت تسيطر على كل شيء، حتى حيوانات المنزل وجماداته، جميلة تفكر كيف ستموت. سلامة يفكر كيف سيقتلها. هل يكتم أنفسها بالوسادة؟ هل يعلق حبلًا بالسقف ويكون الأمر أشبه بحكم إعدام حقيقي؟ هل يطلق عليها الرصاص؟ تعددت الطرق والقاتل عاجز عن التنفيذ، عاجز لدرجة جعلته يتمنى الموت لنفسه، لحسن حظه ما تمناه قد أدركه دون مجهود، عندما طال نومه على غير المعتاد هزته زوجته فوجدت جسده ثقيلًا، أدركت الأم انسحاب الأب، عرفت أنها احتلت مكانه، في لحظة غير معهودة أصبحت الأم كشجرة الدر، أخفت خبر وفاة سلامة، أرسلت ابنتها إلى الخالة بالنخيلة مع تحذيرات شديدة اللهجة للخالة أن تظل جميلة حبيسة الغرفة مهما حدث حتى تضع مولودها، على قدر حزن جميلة شعرت بفرح غريب لا مكان له في الأوقات العادية، كتبت لها الحياة فرصة جديدة، عليها استغلالها، صحيح لا تعرف الطريقة لكنها قررت الانصياع لأوامر والدتها التي طالما تعاطفت معها، جربت السير خلف عاطفتها وخسرت سندها الأول، الآن هي غير مستعدة لخسارات جديدة، وإن ترجت خالتها لتحضر لها صديقتها مريم إلا أن الخالة التزمت بأوامر الأم التي تقمصت جدية زوجها وقررت حفظ عرض ابنتها.

عندما أتى عباس لتعزية أم جميلة شعرت بنغزة، هل رغب عباس في إيصال رسالة ما لها، هل علم بعلاقة ابنتها غير الشرعية؟ تفرعت الاحتمالات داخل عقل الأم، أرسلت تنبيهًا جديدًا لأختها ألا تقابل جميلة أي إنسان يسأل عليها حتى تلد، مرت الأيام بطيئة على جميلة في عزلتها حتى وضعت مولودها الذي وُئد حيًا في اليوم نفسه، كانت المهمة شاقة تصدت لها الأم بنفسها التي حضرت قبل

الولادة بيومين، أشرفت على كل شيء، إخراج الرضيع إلى الحياة ومنها.

4

مرت الأيام العشرة التالية على جميلة أكثر صعوبة، تشعر بصهد شديد، أصابتها حمى النفاس، دخلت في نوبة من الهذيان، خرج كل شيء داخلها إلى العلن، حكت دون وعي، الأم والخالة تسمعان بينما تغيران الكمادات التي تتأثر برودتها بسخونة جميلة، لم تكن الأم مستعدة لخسارة جديدة، يكفي وفاة عمود البيت كمدًا على سقطة ابنته، مع كل كلمة تلفظها جميلة تنظر الأم والخالة إلى بعضهما، كانت المياه تسير أسفلك يا أم جميلة دون أن تشعري بها، لقد أخطأت جميلة خطيئة العمر لكن الأم استطاعت بنجاح احتواء الأمر، اكتشفت داخلها قدرات لم تعهدها، كانت أكثر ثباتًا من الأب الذي أنهكه تعري جميلة أمام خليل، لطالما كانت طبيعة السيدات وخاصة نساء الصعيد أقوى، أكثر ثباتًا وإن ظن الآخرون العكس، الأمر برمته أن هذه السيدة لم تعرف أن عليها فعل شيء إلا بعد وفاة زوجها.

تعافت جميلة من الحمى لكنها لم تتعافَ من حبها لخليل، ترى الأمور أيسر الآن، الضغط الزمني الذي سببه جنينها انتهى، ويمكنها الانتظار، كل ما تحتاجه هو الوصول لخليل، هل تكتب له خطابًا جديدًا؟ ما فائدة الخطابات وهو لا يرد عليها، طوى صفحتها ونساها، لا تعرف جميلة كيف تتصرف، بينما الأم قد عزمت نيتها على إعادة ابنتها كما كانت – صاغ سليم – ومن ثم العودة إلى الظهور أمام الخلق برأس مرفوع كما عوّدهم سلامة دائمًا.

الفصل الرابع
النهايــة

1

- إيه قولك بقى أنا هروح للزفت العمدة ده وأفتح دماغه!

قالها البوسطجي مندفعًا لحسني، منفجرًا لا يستطيع تمالك أعصابه، قال حسني:

- عباس، ربنا يعلم أنا بعزك قد إيه، وربنا يعلم برضه أنا شيلت من عليك مشاكل قد إيه، رحمتك من تحقيقات ووقفة مذلة قدام البيه وكيل النيابة، بس أنت دلوقتي ماشي في حارة سد، بتخبط راسك في حيطة، أنت اللي هتتأذي مش حد غيرك.

- طب أعمل إيه؟

- كُل العمدة بكلمتين، صدقني ده راجل عبيط زي العيال الصغيرة.

- ده رجل جلف لسانه زفر.

احتوى حسني عباس وصحبه إلى العمدة، استسمحه وقبّل رأسه وأخبره أن كافة شروطه مجابة ولم يكن للعمدة إلا شرط واحد:

- يخلِي البيت.

قال حسني بهدوء:

- إديله فرصة يدبّر أموره.

- أسبوع لجل خاطرك يا حضرة المعاون.

حاول عباس إبداء اعتراضه لكن حسني أسكته بنظرة وقال:

- تبعت بكره سويلم يتنازل عن البلاغ.

- عنيا.

- وتبعت كام نفر يغيروا الشهادات اللي شهدوها ضد عباس في البلاغات اللي فاتت.

قال العمدة بلؤم:

- أنت مش قفلتها يا سي حسني، إيه لزمته نودي ونجيب، مصاريف وعطلة على الفاضي.

كان عباس يرغب في قول الكثير، هما دول ناس.. دول عقارب، أسكت نفسه رغمًا عنه بينما حسني يقول بنبرة تحذير:

- قفلتها ولا مقفلتهاش دي شغلتي أنا يا عمدة.

- يمشي كلامك يا حضرة المعاون.

قام عباس، مدَّ العمدة يده ليصافحه، تردد عباس في مد يده، لكن نظرة من المعاون حركتها بشكل تلقائي ليتصافح الاثنان متصالحين، في طريق العودة كان ابتسامة حسني لا تفارقه، شعر بسير كل شيء على ما يرام، لقد قضى على النزاع أخيرًا، لكز حسني عباس وقال:

- كل شيء عدى على خير.

يجهل عباس ثلاثة أمور تمامًا، الأول هو كيفية شكر حسني على وقوفه جواره كأخ في الفترة السابقة، والثاني كيف يتدبر أموره لينتقل إلى بيت آخر في ظرف سبعة أيام؟ والثالث وهو الأخطر كيف يتجاوز جريمة الماضي وهو يرى ظلها في كل لحظة؟

غافلت جميلة الكل وتسللت من بيت خالتها إلى بيت خليل فوجدته موصدًا، لا أحد هنا، لا تعرف جميلة أن مريم صديقة العمر مع أخيها خليل بالإسكندرية وأم خليل باتت بمفردها بسبب أوجاع المفاصل ولما ضاق عليها الجلوس بمفردها ذهبت إلى أختها لتخدمها، هل تستسلم جميلة؟! شيء ما داخلها دفعها للمواصلة، فكرت ودفعتها أقدامها إلى السير حتى الموقف، وللعجب نزلت مصر، بمفردها ودون أي نقود لديها وصلت إلى حيث ترسل خطاباتها، وقفت بجوار شباك بريد الفجالة وانتظرت، انتظرت طويلًا حتى تعبت، أفاقها التعب من الحالة التي تلبستها منذ هربت من البيت، ماذا ستفعل الآن؟ هل ستستأجر مناديًا يجوب القاهرة باحثًا عن خليل؟ هل تسرعت جميلة؟ إنها لم تتسرع، بل هي تنقذ روحها المحبة التي سلّمتها لخليل أمانة، أخطأت جميلة هذه المرة بانجرافها للبحث عن خليل، كل مرة تلوم نفسها على التسرع وكل مرة تسطر خطًا جديدًا في كراسة حياتها، والآن.. ما العمل؟ إلى متى الانتظار؟ إلى متى الجلوس هنا؟ هل سيمر خليل ويلاحظها فيبتسم ويقترب منها ممسكًا بيدها ليخبرها أن كل شيء على ما يرام، تتمنى جميلة وهي واعية استحالة الأمر، لو كان خليل متمسكًا بها لجاء غير تاركٍ إياها تغرق في الوحل، خذلت قدماها الجسد المنهك، جلست جميلة ابنة أسيوط جوار شباك البوسطة مهملة حتى اصطادتها زوج عيون خبيرة، لاقطة، تبحث عن أشباهها بالمشوار، اقتربت العيون وابتسمت بينما جميلة منكمشة في خوف.

3

أوصل خليل مريم إلى النخيلة ثم تحرك إلى كوم النحل، يرغب في الاطمئنان على حبيبته، وصل خليل إلى بيت سلامة فوجد الخادمة التي أخبرته بوفاة رب الأسرة وذهاب الأم والابنة إلى النخيلة تحرك خليل مغادرًا كوم النحل وأثناء سيره مسرعًا مر من أمام شباب مكتب بريد كوم النحل، لم يره عباس الذي كان منهمكًا في أداء وظيفته ولم يلحظه خليل الذي شعر أن الدنيا وقعت على رأس

حبيبته؛ لذا لم تتمكن من الرد على خطاباته المتتالية، لما عاد خليل قابلته أم جميلة بوجه أسود، سألها عن حبيبته فأخبرته بوجوم أن جميلة لحقت بوالدها، وكانت الأم صادقة؛ فجميلة ماتت منذ هربت من البيت، تلك البهيمة مصرة تجيب العار وترجع، لو كانت لسه حامل كنت جايز أفهم، إنما دلوقتي وهي خالية دايرة تدور على خليل ده، ياريته كان ملو هدومه ويستاهل عمايلها دي، رغم كونه مدرسًا، فهو أشبه بالتلامذة الذين يذاكر لهم. خرج خليل وارتكن جوار البيت وانخرط في بكاء طويل على محبوبته جميلة، وكانت هذه اللحظة الأخيرة له بالفعل فهو لن يراها أبدًا وسيقل الحزن بمرور الوقت حتى ينساها، هذا هو حال الدنيا الذي ننكره ظانين أنفسنا مخلصين، لكن في الحقيقة لا أحد مخلص للحزن.

الفصل الخامس
تسليم وتسلم

- الجواب المرة دي لك..

تعجب عباس، كان البدل مبتسمًا كأنه فتح الخطاب وقرأه، سأله عباس عن المحتوى فقال:

- بلغوني أنه قرار نقل.. ألف مبروك، أي مكان أحسن من هنا.

أشرق وجه عباس، قرأ القرار، سيعود من جديد إلى القاهرة، ياه، خبر طالما انتظره واستبعده. أتى أخيرًا، الآن بعدما انتقل من بيت العمدة إلى بيت آخر، سيغادر كوم النحل بلا رجعة، هذا المكان الذي لم يشعر فيه بالألفة قط، حاول التأقلم، منح نفسه مسكنات عديدة للصبر ووصل إلى حد النهاية واعتقد انهيار كل شيء، لكن هذا لم يحدث.

أول من فكر في إبلاغه بالأمر هو حسني، بعدما أنهى عمله نزل إلى المركز وقابله، كان غارقًا بين الأوراق، للمرة الأولى يلاحظ حسني ابتسام عباس، وحين عرف السبب قال:

- مبروك، كده هتريحني من النزول مخصوص لكوم النحل.

- الله يبارك فيك، أنا مش عارف أقولك إيه على وقفتك معايا طول المدة اللي فاتت.

أخبره حسني أنه لا داعي للشكر، وأوجز الأمر في عناق حار اندمج فيه الصديقان للحظات، قال بعدها حسني:

- لا تنساني، ابعت لي جوابات.

- مؤكد.

قال حسني ضاحكًا:

- بس لا تكتب فيها أي شيء عن الحكايات القديمة، جايز البوسطجي الجديد يكون هو راخر يقرأ الجوابات ويكشف المستور.

لم يضحك عباس على النكتة، لم يتصالح مع نفسه بعد، يحاول التناسي، ومن ثم تخفيف وطأة الحزن، لاحظ حسني ذلك، فربت على كتف صديقه وغيّر الموضوع قائلًا:

- لما أنزل مصر ليًا عزومة في رقبتك.

قال عباس مندفعًا:

- عزومة واحدة بس.. أنت ليك في رقبتي دين كبير ربنا يقدرني وأرده.

ابتسم حسني وقال:

- ما بين الخيرين حساب، أنا وأنت من طينة أخرى غير طينة أهل الكوم دول، ربنا يقدرني أنا كمان على الانتقال من هنا.

ودع عباس صديقه ثانيًا ورحل، سلم البيت لسويلم غفير العمدة الذي أشاع في البلد كلها أن العمدة هو السبب في نقل البوسطجي؛ لأنه عمل رأسه برأس العمدة، لم يهتم عباس بتكذيب الإشاعة أو نفيها، ترك للبلد موضوعًا تتحدث عنه، قبل سفره حاول السؤال عن أهل بيت المعلم سلامة، لكن أحدًا لم يرحه بجواب شافٍ. سلم عباس عهدته إلى البوسطجي الجديد، تمنى له التوفيق، رأى فيه عباس نسخة جديدة منه، تمنى ألا يسبب ذلك الشاب المنقول من الاسكندرية المتاعب لنفسه، أو لإحدى فتيات تلك القرية حين يقرأ خطاباتها.

عاد عباس إلى ملعبه، القاهرة، عام بعد عام نسي الأمر وتحول لذكرى تؤلمه لوقت قصير، الآن بعد مرور خمس سنوات على الحكاية وأثناء سيره في شارع عماد الدين لاحظ لافتة براقة عليها صورة لفنانة استعراضية تُدعى جميلة،

شعر بها تناديه، أحس نفسه يعرفها، لكنه لم يكن رآها من قبل، وقف عباس أمام الصورة متسمرًا، جميلة اسم يثير داخله الشجون، قرر قطع تذكرة ومشاهدة الاستعراض، كان شيء خفيٌ يدفعه لذلك، شيء لم ولن يعرفه أبدًا، أن جميلة التي دخل الآن لمشاهدة رقصتها هي نفسها جميلة التي طالما انتظر خطاباتها إلى حبيبها على أحر من الجمر.

أسفل الحب(1)

أسفل الحب
٢٧٠٧٤٢٨١١٢

1

ما هذه البهجة المنعشة؟!

شاركنا النسيم حلاوة اللقاء، لم أتخيل قط أن أنفرد بحبيبتي هنا وسط جموع العاشقين الذين انزوى كل ثنائي منهم في ركن ما، وكنت قد قلت لها معتذرًا:

- إنها ظروف استثنائية لعينة، ولسوف نضحك عليها في القريب العاجل.

أعلم أن الظروف الاستثنائية ليست باستثنائية، بل هي ظروف دائمة، واقعة، مقيمة، نضحك على أنفسنا بقول "استنثنائية"، نرجو زوالها ولا تزول، لا أرغب في أن أكون كأمي التي تعبر عناد الحاضر متطلعة إلى آمال غامضة وراء الأفق، أي آمال وأي أفق؟! لم أرَ في حياتي معجزات، وبطبيعة الحال لن أصدّقها حتى إن رأيتها، يجب أن تحدث المعجزة لي لأصدّق وأتيقن.

لم تكن رجاء مصدّقةً ما حدث – بدرجة ما -، هكذا بدا على ملامحها وأنا لست عرافًا لأعلم ما حلَّ داخلها بالضبط، لكن الدقائق مضت لأنضج لحظيًا بصفتي إنسانًا وعاشقًا، هكذا بعد كل لقاء لنا يستقيم العقل لبعض الوقت مما يمنحني فرصة للتفكير حتى تعود الرغبة وتطيل عنقها لتطل برأسها من جديد وتخرج لتوقف كل شيء.

سألت وهي تغلق أزرار بلوزتها:

- والآن؟

أجبت ببساطة من انزاح عن صدره صخرة:

- كما اتفقنا.. الهجرة هي الحل، طريقنا صعب لكننا خطونا فيه أمتارًا.

ابتسمت.

- حصلنا على بعض المكاسب كما ترين.

قالت بجدية:

- لا وقت للمزاح، علينا أن نثبت للآخرين أننا على الطريق الصحيح.

قلت برجاء:

- نثبت لأنفسنا، لا شأن للآخرين بنا.

2

بدلًا من التسكع ما بين الحضور والانصراف من العمل أجمع أوراقًا لا تنتهي، أسير في أكثر من طريق؛ الهجرة إلى بلاد الأجانب؛ لنعيش الحياة بصورتها الحقيقية، أو إلى بلاد العرب لنكسب الرزق الذي سيفتح لنا حياة طبيعية في بلدنا، أبحث عن وظيفة لدى الشئون القانونية في أي شركة بالخارج وهي تبحث عن فرصة بمدرسة معلمة تاريخ، في إحدى لقاءاتنا التي باتت متكررة عند هضبة الهرم صرخت:

- وهل يوجد تاريخ أقدم من هذا يا رجاء؟ لم تتخيلي أبدًا أن نلجأ إلى هنا باعتباره بيتنا الذي نبحث عنه.

سكتت رجاء محتارة فأكملت:

- القدماء يعرفون أكثر منا.

ثم استدركت:

- ليس كلهم، هناك قدماء لا يعرفون شيئًا.

سألت:

- من تقصد؟

أجبت:

- عاطف هلال، هل تعرفينه؟

قالت مستنكرة:

- رغم إخباري لك بعدم حبي للقراءة لكني أعرف عاطف هلال، إنه كاتب ومفكر كبير.

- انتهازي، متحول، أخصائي وثب من السفن في اللحظات المناسبة وهي تغرق.

سألت:

- لِمَ تكرهه لهذه الدرجة؟

- التقيته مرتين في مقهى الحرية، وخلال حديثنا اكتشفت حقيقته.

لم تسأل رجاء أكثر، حمدت الله على ذلك، لم أكن في لحظة تسمح بالحكي التفصيلي، أوصلت رجاء حتى منزلهم، وعدت إلى حارة شمردل ولكن بدلًا من الصعود إلى الشقة جلست على السلم. هذه لحظة من لحظات عمل العقل بأقصى جهد له رغبة في تحقيق شيء ما، ذكرني عقلي بصديق يعمل بشركة سفريات، لم أنتظر، ذهبت له فوجَّهتني والدته إلى القهوة التي يجلس فيها أطراف الليل، وهناك وجدته يجلس حول مجموعة من حاملي المؤهل المتوسط الذين يرغبون في فرصة سفر. سلَّمت عليه بحرارة لا تناسب معرفتنا، جلست وطلبت شايًا، سمعت بعضًا من نكاته السمجة وضحكت، في قرارة نفسي أضحك على حالي الذي لم أرغبه، بعد مدة لم أحسبها انسحب الشباب بعدما ترك كل منهم رقم هاتف أقرب بقال إلى بيته، حينها مُنحت فرصة الحكي وأخبرت الصديق أني وزوجتي نبحث عن عقد عمل بالخارج فابتسم ووعدني بأن يوفر لي عقدين في أقرب وقت، ودعته ورحلت بعدما تركت له رقم هاتف أحمد عبد المقصود زوج أختي نهى.

3

مشكلة رجاء الحقيقة أنها تراني كثيرًا مراهقًا، وأنا أرى نفسي رجلًا، وما الرجل يا رجاء إلا مراهق كبير؛ لذا عندما جلست مع أهلك من جديد لم أقدم لهم حلًا مقنعًا، هم يرونني وباءً أفلت من المراقبة الصحية، لهم كل الحق، فسلوكي قد يبدو لبعض الناس لا معقول، لكنه لي قمة الاتزان.

نزلت مع رجاء من منزلهم بعد مقابلة سخيفة طويلة، نبهتها والدتها ألا تتأخر فقلت بسخرية:

- لا تقلقي، هي مع زوجها، ليست مع شخص غريب.

أغلقت حماتي الباب في وجهينا، وعلى وجهها قد استشاط الغضب، ابتسمت رجاء لكن ابتسامتها اختفت حين أخبرتها أننا ذاهبان لهضبة الهرم، رفضت وأخبرتني بأنها سئمت المكان، سألتها حلًا فسكتت فقلت:

- كنت قد طلبت مني بألا نلتقي في فندق، وقد انصعت لك.

- لأن لي حقًا، أخبرتك سابقًا أن الجميع هناك يعرفون لماذا نأتي، ما أفظع نظرات الموظفين والخدم! إنها فوق أي احتمال.

- الشوق هو ما فوق أي احتمال يا رجاء.

قالت بنفاد صبر:

- علي.. لقد تعبت، أرغب في حل، الوقت يمر ولا جديد يحدث، لا يجوز أن يبقى زواجنا أكثر من ذلك بلا حل واضح.

تركتني رجاء وعادت إلى منزلهم، تركتني وحيدًا برغبة مشتعلة لن تهدأ الليلة، كيف لي يا رجاء أن أغير واقعًا -قد ولدت فيه- في وقت قصير؟ أحتاج لسنوات، مثلي كمن يرغب في تكسير جبل بشاكوش.

في اليوم التالي ظلت رجاء بوجه جامد، لم تبتسم، لم تحاول الإجابة عن أسئلتي، دام حالها هذا لأيام ثم لشهور، وعادت رغبتي لأيام كبتها الأولى، حقيقة الوضع أصعب الآن، فمن جرب عرف ومن ذاق اشتاق إلى نهاية هذه الحكم الساذجة التي كتبها أمثال عاطف هلال في لحظة تشبع، بينما أنا الآن أتجرع حيرة العذاب، رجاء تمارس عليّ نوعًا من الضغط. ما يسبب لي الإزعاج أني لم أقصر في حدود ما أملك. وهي تعرف إمكانياتي بالطبع، لذا لِمَ تبتعد رجاء وهي تدري أني أحتاجها؟ أحتاج إلى أن أطوقها بذراعي في إشارة مني كي تحتويني، كي تلاصقني لنشعر معًا بدفء رغم برودة الحياة الدائمة، أنا مثلها أحتاج للشعور بطمأنينة، وهي الآن تسحب مني كل هذه الامتيازات كي أبحث بمفردي عن حل، أرغب في القول "لو أملك الحل وحدي لما شاركتك مشكلتي يا رجاء"، سكت للحظات فندمت على ما جال داخلي.

4

عادت الكآبة بعد ظني وداعها لأجل غير مسمى، عرجت على الأمريكين كثيرًا، في كل مرة توقعت رؤيتها هناك جالسة في مكاننا المعتاد، ذلك المكان الذي انتظرتني فيه من قبل وقالت بإصرار "أنا معك حتى النهاية"، لكنها حتى الآن لم تظهر وبالتالي لم تقل شيئًا.

أثناء زيارتي لنهى في موعد العشاء بشكل مقصود لنيل وجبة دسمة تساعد على التفكير قابلت زوجها أحمد، كان رجلًا طيبًا، عرض علي العمل معه، للأسف لقد مر الوقت على تعلم شيء جديد، قال لي:

- بالطبع عندك حق، لكني أنا أرغب في مساعدتك، فنحن أهل.

شكرته ورحلت دون أن أشرب الشاي، بمقدوري تناوله في أي مقهى، أما الوجبة التي لم أهضمها بعد لا إمكانية لشرائها إلا بالتنازل عن راتب نصف شهر، هذا أمر منطقي، أحمد يكسب في اليوم الواحد قوت شهري بالكامل، إذا عملت معه

لأصبح بالإمكان تحسين الوضع ولا داعي للسفر والغربة، لكن ماذا أعمل؟ بعد كل ذلك وفي هذا العمر أعمل مساعدًا لسباك، لو كانت البداية لوافقت لكني في منتصف طريق غير واضح المعالم، درست الحقوق وكرهتها فقد كان تخصصي في الثانوية علميًا، ولم يخطر ببالي أبدًا مزاولة القانون، أي قانون أقصد؛ القانون الذي وُضع؛ كي يكون إطارًا لتهذيب الحياة، أم قانون العيش نفسه الذي لم تَعِه أسرتي المكافحة؟

بينما أفكر، أمارس تسكعي المحبب، ألاحظني أراقب السيدات كما كنت أفعل سابقًا، الرغبة المحمومة تزيد، ورجاء اختفت في ظروف واضحة، تلسعني برودة الليل الذي داعبني بنسماته في السابق، ترشدني قدماي إلى بيت رجاء وهناك أطرق الباب بعنف غير مقصود لتفتح لي أمها، تنظر إليّ شزرًا، تهتف:

- ماذا تريد يا زوج الغفلة؟

ابتسم وأقول:

- زوجتي.. أريد زوجتي.

- لا زوجة لك لدينا، رجاء سترفع قضية طلاق.

أصرخ:

- رجاء، أحتاج إلى التحدث معك.

أسمع خطوات تقترب من الباب، تأتي رجاء التي لم أعهدها مَن قبل:

- أرجوك يا علي، أنهِ كل هذا.

قالتها رجاء بينما أمها تغلق باب الرحمة الأخير في وجهي.

أنا مستعد لإنهاء حياتي حالًا لو كان هذا الثمن، لكن حياتي بلا قيمة، وحياتي والدي، حياة أسرتي كلها، كذلك أسرتك، كلنا بلا قيمة في مجتمع رخيص،

الفتارين المضاءة التي تسلط الضوء على بضاعة براقة أغلى منا بكثير، هكذا أعتقد، وهكذا نراها، نحن خلف الزجاج نمد رغبتنا لنحصل عليها، فتغدو أطرافنا عاجزة عن الوصول، وأنا مثل طرفي، أنا عاجز عن كل حل، وأي حل. أقف أمام باب رجاء للحظات، أغادر، أدخل شقتنا الضيقة بينما أمي ترفي بلوزة مها، تسألني:

- تأكل؟

أرغب في إخبارها بجوعي لكن لا جدوى، فالمطبخ لا يحوي ما يشبعني، أرد:

- أكلت عند نهى.

أغلق باب الحجرة الضيقة، أفتح النافذة كما في السابق، وأنتظر جارة تطل، أي جارة وأي هيئة، المهم أنثى لا تُغلق الباب في وجهي. أنظر لساعة الحائط فأجدها واقفة عند الواحدة، قررت تزويدها بالبطاريات لكني دومًا أنسى.

5

بهدوء غير مناسب لصخبي الداخلي نجلس لدى المأذون نفسه لنكتب في وثيقة بطلان ملكية كلينا للآخر، في اليوم التالي غبت عن العمل، ليذهب الحضور والانصراف إلى الجحيم! زاملني السهاد ورأيت حقيقة بشعة تخبرني بصوت فظ:"اختفت رجاء من حياتك"، لم أكن في حاجة لهذه الحقيقة، لكني في حاجة لحل.

ساقتني الطرق لمقهى الحرية من جديد، في مكانه المعتاد كان عاطف هلال منفردًا بنفسه للراحة أو التفكير، لم أقترب منه هذه المرة، طلبت شايًا وجلست أطالعه من بعيد، اقتحمت المكان فتاة حسناء جالسته لدقائق ثم رحلا معًا بعد أن عدلت له ربطة عنقه، مرَّ من جواري والتقت أعيننا، ولم يحرك ساكنًا، هكذا أيها المفكر الكبير تنساني بعد كل لقاء بينما تتذكر الحسناوات، تطلب مني الصبر على وضعي بينما أنت لا تصبر وتأكل حد التخمة، ولا تشبع، دفعت حسابي ومضيت

خلفه بقرار مرتجل وجرأة لا تعوزني إلا أنني لم ألحقه بالطبع فقد ركب سيارته ورحل مع حسنائه، بينما حسنائي تركتني ورحلت. ليس من الصعب معرفة طريقه، هو إما هنا أو بمكتبه بالجريدة أو بمنزله الذي لا يبتعد عن مقهى الحرية بمسافة ربع ساعة.

استكمالًا لقراري المرتجل مشيت، ظللت أمشي وأمشي بلا هدف واضح حتى وصلت لعمارة عاطف هلال، كانت سيارته واقفة أسفل البناية في ثبات بينما سائقها ينفث دخانه؛ ليمتزج بالهواء الذي نتنفسه، اقتربت من البواب الذي رفض أن يكون لطيفًا كما يحدث في الأفلام العربية، الشيء نفسه فعله السائق، وقفت بعيدًا لمدة تجاوزت الساعتين حتى نزلت الحسناء بمفردها، فتحت الباب وارتمت على المقاعد الخلفية لتنطلق السيارة مبتعدة. فكرت في الصعود لكن نظرة جديدة للبواب أبعدت الفكرة عن رأسي لأغادر خائبًا بعدما فشلت في تنفيذ شيء لا أعرفه. طوال طريق العودة أسأل نفسي عن سبب ما فعلت، هل هناك ما أرغبه من هذا الرجل؟ أعتقد أنني لا أنشد منه إلا اعترافًا حقيقيًا بفشل جيله في حل مشكلتي ومشكلة جيلي، لكن عاطف وأمثاله كاذبون، ولا فائدة من اعترافه أمامي هذا إن فعل، إنهم كاذبون وهم يعلمون ذلك.

6

عرفت بعد ذلك أن رجاء حصلت على إجازة لستة أشهر قطعت بها حبل الوصل الأخير، والآن عدت إلى نقطة ما قبل الصفر. لا مفر من نسيان كل شيء والبدء من جديد، سخرت، أنا منذ ولدت في طور البدء لم أجتزه، إذن عليّ بالبدء عمومًا، ومع هذه الكلمات التي حاولت تشجيع نفسي بها وجدت قدمي تسوقني لدكان الأسطى أحمد السباك.

استقبلني صبيه الذي لم يتجاوز السنوات العشر، جلست انتظرته حوالي الساعة، ابتسم حين دخل ووجدني، قال:

- عين العقل، لقد اخترت الحل السليم.

لا حلول سليمة، من داخلي غير متقبل ما أفعل، لكن الفراغ والذكريات لا يُطاقان، وفي خضم البحث عن ذات.. تجربة جديدة.. رزق آخر، ولجت عالم الحرفيين على يد زوج أختي الذي كان كريمًا معي بحق ويحاول تعليمي بالشكل الأبسط، لذا خلال فترة وجيزة أصبح لدي خبرة لا بأس بها وتحوّلت من صبي إلى مساعد، استطعت القيام ببعض المهام كما عرفت الفارق بين أنواع البضاعة الأصلية والمغشوشة حتى لو لم يكن عليها ما يدل على هويتها، حاولت قدر إمكاني الاندماج في عالمي الجديد، نجحت تارة وفشلت أخرى، أذهب للوظيفة فألقي بتوقيعي على الورق ثم أتجه إلى المحل؛ لأفتحه وأجلس منتظرًا الأسطى، قبل قدومه يأتي صبيه الصغير بينما يصل هو مع أذان الظهر، يأخذ العدة ويخبرني بخط سيرنا اليوم، أتجه معه إلى العمل وقبل الثانية بقليل أذهب وأمضى في كشف الانصراف فأعود له على الفور، بعض الأيام لا أعود إلى العمل مرة أخرى، في البداية كان الموظف يعاقبني بانصراف دون إذن، بدت لي العقوبة بلا قيمة، فما أحصل عليه مع أحمد أفضل كثيرًا، إلا أنني بعد ذلك طبقت أحد الدروس التي تعلمتها في السوق الجديد، لاغيت موظف الكشف وتمكنت بعد إعطائه قليلًا من النقود أن يعفيني معظم أيام الأسبوع من التوقيع بكشف الانصراف، وهكذا وجدتني أحقق تقدمًا ملحوظًا حتى أتى ما يوقف سير حياتي بهذا المنوال.

7

أخبرني أحمد أن صديقًا لي اتصل على هاتفه بالأمس وطلب منه إخباري بأنه حصل لي على وظيفة مناسبة براتب مغر بإحدى البلاد العربية، اتسعت ابتسامتي بينما نظر لي أحمد بحزن كأن الفراق أتى سريعًا، لم أتورط معه في حديث يدل على نوايا الرحيل، أشعر أن هناك شيئًا ناقصًا، لا تأتي الفرص بسهولة وإذا أتت أخذت معها شيئًا، وبهذا لا تصبح فرصًا، بل تبيت مقايضة لعينة.

في مساء اليوم نفسه أعرف المطلوب مني؛ مبلغًا من المال يوازي نصف راتب السنة الأولى، يحصل مكتب السفريات على نصفه مقدمًا ونصفه الآخر بعد ستة أشهر، كلام جميل لكن من أين لي بالمقدم؟ أطلب مهلة لجمعه، أسير قليلًا مبتعدًا عن المقهى، يجمع عقلي المبلغ الذي يمكنه الحصول عليه فأجدني ما زلت بعيدًا عن الرقم المراد، في هذه الليلة لا يهادنني النوم، أظل أجمع وأطرح وأضرب وأقسم، لو كان التفكير في المال يحل الأزمات لأصبحت من الأغنياء.

في صباح اليوم التالي ألمح رجاء قادمة، أشعر برعشة ما، كنت أمتلكها في يومًا ما، عرفت بتقديمها لإجازة جديدة بالمدة نفسها، لحقت بها أثناء خروجها وناديت:

- رجاء!

توقفت وتوقف معنا الزمن بالفعل، أصبح أشبه بساعة حجرتي التي لا بطاريات لها الآن، التفتت ونظرت لي، لكنها لم تتكلم.

- أحتاج فرصة للحديث معك، هناك جديد.

قالت بسخرية:

- لا فارق.

قلت متوسلًا:

- يهمني أن تسمعي.

في مكاننا الأثير نجلس، الآن ألاحظ تفاصيلك بشكل أكثر دقة، شاحبة.. فقدت كيلوجرامين على أقل تقدير أدخلاكِ نادي الفتيات النحيلات بعد أن كنت لا بالنحيلة ولا بالسمينة، كما أن عينيك العسليتين أنهكتا في معركة بكاء مستمرة، ظهرت تجعيدة وحيدة في وجهك تختفي لو ابتسمت، هذا ما اعتقدته، وهكذا تبدين لي.

قطعت الصمت قائلًا:

- عشنا أيامًا صعبة.

لم ترد فأكملت:

- وجدت وظيفة مناسبة بالخارج، كما حلمنا.

ما زالت ساكتة، فختمت:

- ما رأيك؟

قالت:

- الغبي من يسير في الطريق نفسه مرتين وينتظر نتيجة مختلفة.

أمقت مثل هذه الجمل، تذكرني بعاطف هلال، أبتلع رد رجاء الذي بدا عصيًا عن تجاوز الحلق دون شربة ماء وأقول:

- الطريق الآن مختلف، لديّ طموحات وآمال.

أسكت للحظات غير محسوبة وأكمل:

- ورجاء.

قالت بيأس:

- لم تعد رجاء موجودة، لقد رحلت.

قلت بلهفة:

- وماذا أفعل لأستعيدها؟

سألت:

- هل تحبني حقًا يا علي؟

أجبت:

- أنت حلمي.

قالت بضحكة استهزاء:

- أنت تعرف جيدًا أنني لا أحلم.

قلت معترضًا:

- لكنك معي حلمتِ.

قالت نادمة وقد شخص بصرها بعيدًا:

- ويا ليتني ما حلمت!

قلت بتوسلي السابق:

- أحتاج فرصة.

أكمل وقد شعرت بحنين قديم تحرك داخلها:

- فرصة أخيرة مهما كانت شروطك.

8

ما هذه البهجة المنعشة؟!

فاضت نفسي بهذا المعنى وأنا عائد إلى الدكان، وافقت رجاء على منحي فرصة، وعليّ أن أفعل شيئًا ما، لقد حركت رؤيتي لرجاء رغبة مدهشة في الحياة، ورغبة سابقة خمدت وسط عمل شاق في مهنة لا تناسبني. أصل إلى زوج أختي، أخبره بحاجتي لمبلغ لزوم السفر فيعيرني إياه بطيبته المعهودة التي تداريها أحيانًا خشونة رجل السوق. في البيت يطيرون فرحًا بالوظيفة التي ستعيدنا للطبقة الوسطى من جديد، مها أختي بدأت في إعداد قائمة بجهازها

الذي سأحضره معي من الخارج، وقتها سيطرق العريس بابنا ويطلب يدها، لِمَ لا وهي ستعينه على مواجهة هذه الحياة القاسية؟ أما أمي فطلبت أمتارًا لا نهائية من القماش، ترغب في خياطة ملابس لنا، أما أبي فقال متحفظًا في صوت خافت:

- أرغب في التردد على المقهى من جديد، كما تعرف فقد انقطعت عنه منذ أعوام.

ابتسمت.

خلال أيام قصيرة استخرجت جواز سفر، أعطيته لصديقي مع أصل شهادة المؤهل وصور شخصية والمبلغ المطلوب، وعدني بأخبار سارة خلال فترة وجيزة فقلت:

- نسأل الله التساهيل.

في بيت رجاء بدت والدتها أكثر هدوءًا من أي وقت سابق، مساكين عباد الله يرغبون في أمل، أي أمل، أما والدها فقد ابتسم في وجهي وسألني عن مخططاتي فأخبرته أن هدفي الأول هو إلحاق رجاء بي، طلبت منهم تحديد موعد زواج جديد إلا أن أمها قالت بمكر:

- عندما يتحدد موعد السفر أولًا.

بعد عشاء متكلف مع أهل رجاء، نزلنا للمشي معًا، ابتلعنا ظلام مريح، وفي خضم الشوق الذي تمكن منا أطلت الرغبة برأسها فسألتها ببراءة:

- ألم تفتقدي هضبة الهرم؟

نظرت بنظرة لم أستطع تفسيرها وقالت:

- لم نتزوج بعد.

كان ردها متوقعًا، لذا قلت الإجابة التي حضرها الذهن منذ سألت:

- في قاموسي لم ننفصل، وماذا عنك؟

قالت بألم:

- لقد عشت أيامًا صعبة بدونك.

اعتبرت جملتها موافقة وانطلقت معها بسرعة نحو مكاني المحبب.

9

في يوم كئيب، بدا كئيبًا منذ أن فتحت عيني وشعرت بغصة ما، وتأكدت من كآبته حين نزلت واصطدمت بهوائه المختلف الذي تمتصه رئتيك؛ فتشعر بالاختناق، وأيقنت كآبته حين قابلت صديقي وأخبرني أن الوظيفة التي رتبت عليها مستقبلي ضاعت، سألته منهارًا:

- لِمَ؟

قال باستسلام:

- الخيرة فيما اختاره الله.

قلت بعصبية:

- هذا ليس اختيار الله، إنه اختياركم، من المؤكد أن هناك من زايد ودفع أكثر مني فسلمتم وظيفتي له.

قال متفهمًا غضبي:

- أنت لا تعرف خبايا الأمور، عمومًا خيرها في غيرها، هذا المظروف يحوي نقودك وأوراقك.

ابتعد، أصبح نقطة في سطر الشارع، اختفى عن بصري سرابًا، مثله كالوظيفة

التي اختفت فجأة، ما الحل الآن؟! إنها نهاية جديدة لفصل أخير في حكاية رجاء، لن تكتفي هذه المرة بإجازة بل ستستقيل حتى لا تراني مجددًا.

هكذا اعتقدت وهكذا حدث.

أما على مستوى أسرتي فحلم مها في الزواج أصبح سرابًا هو الآخر، كذلك حلم والدتي بأقمشة لا تنتهي، وحلم والدي بالعودة إلى ارتياد المقهى.

لقد انتهى كل شيء، لقد يئست حقًا، تملكني خواء كبير وتخبط أكبر، شعرتني صفرًا أيسر، وما زاد ألمي معرفتي بخطوبة رجاء على شخص ميسور الحال، وفي مكاننا عند هضبة الهرم لم أجد وليفًا إلا البكاء.

10

احتواني أحمد مجددًا، رحب بي مرة أخرى في عالمه، قتلت داخلي شعور الغربة الذي يعصف بي حين أدخل دكانه وبدأت في تشرب شخصيته والتكلم بطريقته واستخدام لزماته، حسبتني شفيت تمامًا من آثار الماضي وآثامه إلا أن وحشًا تمكن مني حين دخلنا شقة عاطف هلال للقيام ببعض الإصلاحات الضرورية التي عانى المفكر الكبير بسببها غرق شقته.

بعد يومين كنا قد انتهينا تمامًا، كما كنت قد تمكنت من استخراج نسخة من مفتاح الشقة دون ملاحظة أحد، وفي ليل بعيد بعد ذلك حتى لا يربط أي شخص حضورنا بسرقة الشقة اقتحمت المكان، وبينما عاطف يلقي ندوة عن الشرف والأخلاق في الإسكندرية، كنت أجرده مكتسبات شعاراته الزائفة. هذه الألف لي، وهذه لرجاء، أما بقية المال فتعويضًا لأسرتي عن كل الصعوبات التي واجهتهم، هممت بالرحيل لكن شيئًا ما استوقفني، فتحت ضلفة أخرى فوجدت قطعًا مختلفة من ثياب نوم الحسناء، وضعتها في حقيبتي وهممت بالرحيل مجددًا لكن شيئًا ما استوقفني من جديد، لمحت مؤلفات عاطف هلال تُزين مكتبته، أمسكت بها وأغرقتها كلها في حوض الاستحمام، الآن هل يوجد ما يستحق فعله

قبل الرحيل، لا أعتقد.. يكفيه ما فعل ولن يكفيني أبدًا ما فعلت.

---

(1) ملخص ما سبق: علي ليسانس حقوق، وظفته القوى العاملة بشركة حكومية، لا يمارس فيها أي عمل، مثله مثل آخرين كُثر، من عائلة بسيطة، الأم ربة منزل والأب موظف قارب على بلوغ المعاش، أخته مها في كلية الآداب، بينما نهى لم تكمل ثانويتها العامة وتزوجت من أحمد الذي يعمل سباكًا، عانى علي من كبت جنسي، قابل رجاء تلك الزميلة الجديدة في العمل، أحبا بعضهما بعضًا، خطبها لكن الخطبة لم تكتمل لاعتراض والدتها التي رأت أن ذلك تضييع لمستقبل ابنتها، بعد فترة من التخبط تزوجا سرًا وأصبحا يترددان على أحد الفنادق حتى رآهما زميل عمل، استدعى المدير عليًا الذي أخبره أنهما متزوجان حتى لا يظن بهما سوءًا، تم إعلان الخبر الذي قلب بيت الأهل رأسًا على عقب، عرض عليها علي أن تقيم معه ببيت عائلته الضيق إلا أن أهلها كانوا يرفضون ما فعلت، بعد ذلك اصطحبها إلى هضبة الهرم، باغتهما شرطي أثناء اقتراب علي من رجاء فمنحه علي مالًا ورحل، ابتسم علي وأخبر رجاء أن تكلفة جلوسهما معًا هنا أرخص من أي فندق.

امرأة التبني(1)

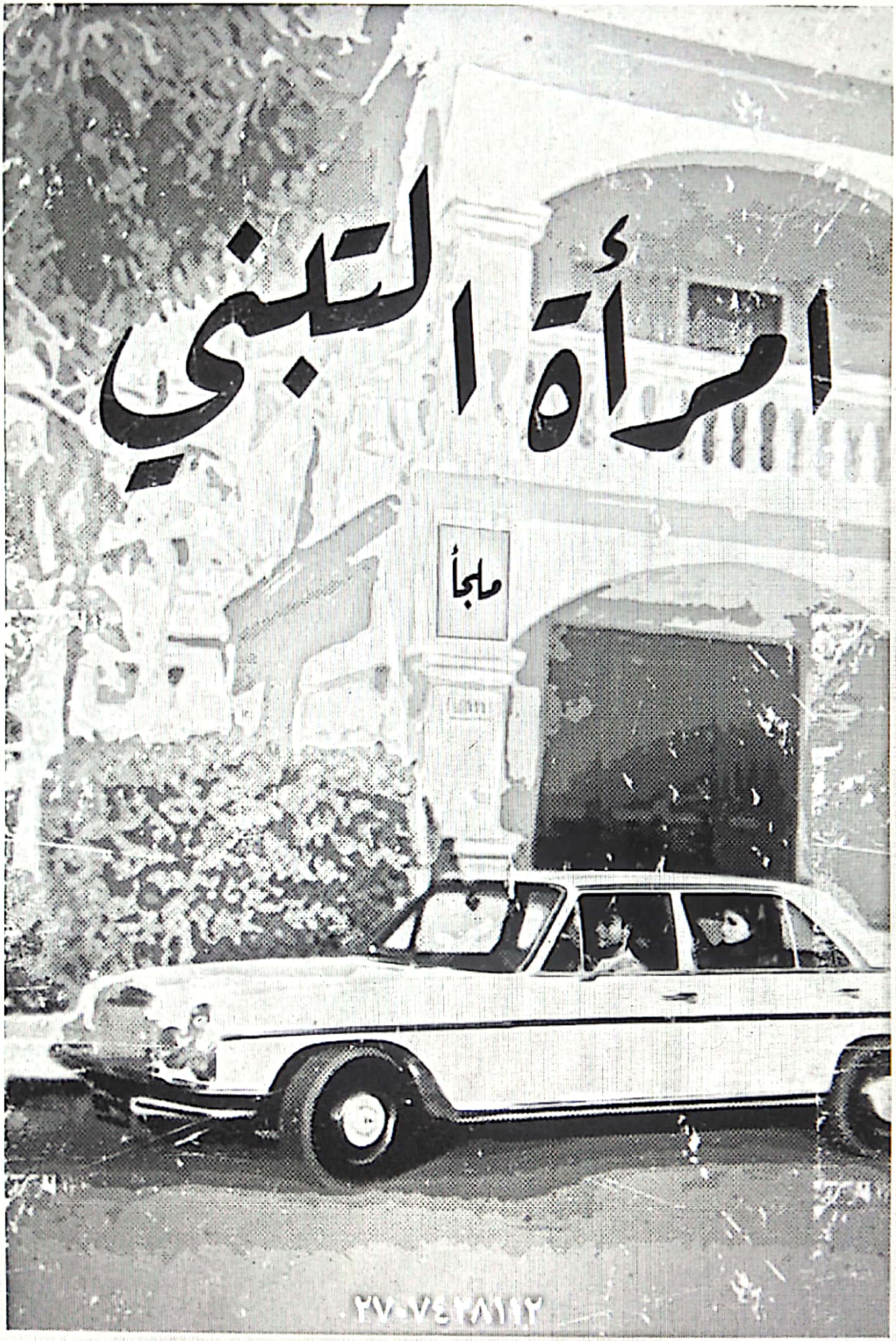

امرأة التبني
ملجأ
٢٧٠٧٤٢٨١٤٢

1

بينما دولت تربّت على كتفه وتمسح بإصبعها على شعره الأبيض كان كل ما يرغب فيه محمد هو صرخة، صرخة حائر لا يعرف قراره، صرخة عاجز عن التصرف، صرخة مخدوع مشى في طريق مرسوم له ونفذ المطلوب منه على أكمل وجه، صرخة مُحب لدولت من قبل ولبثينة الآن، محض صرخة تمتص أحاسيسه كلها، يتردد صداها بصوت القدر لا صوته، صوت القدر الذي يزفه إلى مصيره المعروف مسبقًا، مصيره الذي اختارته دولت منذ عرفته..

لا.. منذ أن عرفت بعقمها.

أراد أن يرفع يد دولت عنه، لكن هذه اليد التي بدت رقيقة ثقيلة كأنها حجر، جمع قواه ونهض من مكانه.

سألته دولت:

- إلى أين؟

ظهرت ابتسامته واتسعت وقال ساخرًا من نفسه ومنها:

- لا أعلم، أنت أدرى.

خرج وأغلق الباب خلفه، ركب سيارته وطاف بها المدينة، لم يكن نظره يرى الطريق بل انشغل بمشاهدة فيلم الذكريات المعتاد، من البداية.. بدايته الأولى في غرفة الجيزة التي نقلته منها دولت إلى غرفة أخرى فسيحة بتفرعات قصر النيل ومن هناك خرج إلى بيتها زوجًا.

والآن..

إنه أب وعاشق في الوقت نفسه، بثينة ابنته وحبيبته وأم طفله المنتظر، ما كل هذا التخبط؟ كيف أقحم نفسه في لعبة دولت؟! هو يعرف جيدًا لما أقحم نفسه فيها، لقد دفعت له كثيرًا وقد استسلم لها تمامًا.

لكن..

ألم يحن الوقت لكي يثور؟

ابتسم، سخر من نفسه، لن يقاوم حتى إن أراد ذلك، الشيء الوحيد الذي ينجح في السيطرة عليه هو ثورته، أما استسلامه لدولت فلا حدود له.

في لندن تم كل شيء..

وضعت بثينة مولودتها جميلة، اختارت دولت الاسم ولم يعترض أحد، كما أتمت كل الأوراق والإجراءات بنفسها، كانت تحكي لمحمد الذي فغر فاه لتمكُّن دولت من إنهاء كل شيء بهذه السرعة، وكما جرت العادة لم يكن على محمد شيء إلا التوقيع على الأوراق.

لكن..

هذه المرة الأمر يختلف، لم يكن التوقيع هذه المرة كسابقتها حين وقع على أوراق تبني بثينة، جميلة ابنته، جزء منه، هو الذي لم يتمن ولم يحب أن يكون أبًا أصبح كذلك، ومن الأم، بثينة محمد عبد الله، ابنته التي تبناها تحت إلحاح دولت، بينما محمد غارق في أفكاره ودولت غارقة في سعادتها بالمولودة الجديدة، كانت الأم الحقيقية التي لم تكمل عامها العشرين في رحاب تأملاتها، اليوم حققت انتصارًا ما، صحيح أنها لا تعرف من هزمت لكن انتصارها باق، خالد، تجسد في هيئة بشرية تُدعى جميلة، لم تحب الاسم، كانت ترغب في تسمية أمل، لكن دولت أصرت وعندما تصر فلا شيء يثنيها عن قرارها، بأي حال من الأحوال هي لن تتحدى دولت، فهي تعذرها، مهما حاولت إخفاء صدمتها بهدوئها المستفز، تعرف بثينة جيدًا أن أمها مصدومة مما حدث، لقد حصلت على زوجها حصولًا كاملًا، استحوذت عليه واحتوته وتشبعت به حققت له حلمًا صعبًا، إنه الآن أبٌ بحق.

احتوت غرفة المستشفى الباردة ثلاثتهم، بينما بقيت جميلة تحت رعاية مشددة، لم تكن صحتها على ما يرام، بدت هزيلة أكثر من اللازم لذا فقد شعر الطبيب الإنجليزي بالقلق، كل الصغيرات اللاتي وضعن في مثل هذه الحالة كان الموت مصيرهم، أباح الطبيب لدولت بخطورة الحالة لكنها ظلت متماسكة وطمأنته كما لو كانت هي الطبيبة وهو مريضها بأن هذه الرضيعة الصغيرة ستتجاوز كل ألم، دُهش الطبيب من هذا اليقين الذي تمتلكه هذا المرأة، وزادت دهشته حينما زال الخطر عن الفتاة كأنه لم يزرها يومًا.

2

عادوا أربعتهم إلى البيت، خصصت دولت دادة لجميلة، بينما انطلقت الأم الصغيرة من جديد، انطلقت لتقترب من محمد، أصبحت أجرأ بينما هو يبذل جهدا ليبقى هادئًا، متزنًا، أما دولت فابتسامتها لا تفارقها. لما انفرد محمد بدولت سألها:

- كيف تكون علاقتي ببثينة الآن؟

ردت ببساطة:

- فلتفعل ما تشاء سواء أردتها زوجتك أو ابنتك أو كلتيهما، لك ما تريد.

حاول أن يُظهر حيرته بشكل أوضح فقال:

- لا أعرف.

قالت ببساطتها نفسها:

- يجب أن تقرر.

تركته واتجهت إلى جميلة لتأنس بها، أما بثينة فاقتحمت الغرفة، دخلت كأنها كانت تنتظر خروج دولت للدخول، جلست جواره ولعبت بيدها في شعره الأبيض، وبلا حوار يذكر بينهما تركها محمد وأغلق عليه باب مكتبه وغرق في

أوراق عمله، بينما بثينة لا تعرف ماذا حلّ به بعد العودة، كان محمد متخبطًا، وصل الأمر لذروته بحمل بثينة، ثم بدأ يخبو، لو أن بثينة فتاة عادية شاركته سريره ثم رحلت بعد بعض المال والهدايا لارتاح، لكنها هنا، ركن أساسي في البيت، لن ترحل، تحمل داخلها الابنة والعشيقة، انبثقت منها الابنة وبقت العشيقة هائمة منطلقة، وجودها الآن يعذبه أكثر مما يريحه، ودولت لا ترشده بفعل، العذاب حليفه الأبدي الذي لم ينتصر عليه والثورة حلمه الذي لن يناله أبدًا.

كرهت بثينة جميلة، منذ قدومها ومحمد تغير ولا تدري ما حل به، هل يُجذب حبيبها الآن للعذراوات فقط؟ هل انتهى دورها وينتظر محمد جميلة لتكبر وتحل محلها؟

حين تصل جميلة إلى السابعة عشرة من عمرها.. سيكون هو في الثانية والستين.. هو يضمن انجذابها له، لكنها ابنته لن ينخرط معها في علاقة غير محسوبة العواقب، تحاول بثينة طمأنة نفسها وإن كانت من داخلها غير مطمئنة، فهي أيضًا ابنته ولم يستطع مقاومتها، لكن جميلة غير، فهي ابنة من ذات اللحم والدم سيشعر معها دون شك بأحاسيس الأبوة التي افتقدها، ظلت بثينة ترسم الحكايات حتى استحوذت عليها، قامت من مكانها وارتدت قميص النوم نفسه الذي شاركهما ليلتهما الأولى في حجرة فندق الإسكندرية وبهدوء وخفة توجهت إلى حجرة مكتبه التي أغلقها عليه من الداخل، حاولت فتح الباب فأعاقها الكالون ولم تجد وسيلة غير الطرق، نادت بصوت خفيض:

- محمد..

لم تسمع خطواته المتجهة للباب لكنها شعرت بها كما شعرت به واقفًا خلف الباب يتردد في فتحه، فنادت مجددًا:

- أنادي محمد أم بابا؟

سمعته يتمتم:

- لا أعرف.

طلبت منه فتح الباب، لكنه لو رغب ذلك من البداية لتركه مفتوحًا، قرر بقاء الباب حائلًا بينهما، فقالت في عصبية:

- هل دوري انتهى بحصولك على ابنة جديدة؟ أنا غبية، نعم أنا غبية، أعطيتك جميلة ولديك دولت زوجة فماذا تبقى لي؟ لم يعد لي مكان.

لم يرد محمد ولم يفتح الباب، ووقفت بثينة تبكي سذاجتها، بينما دولت من أعلى تتابع ما يحدث لدقائق بعدها دخلت غرفتها.

نجحت كل محاولات محمد في صد بثينة التي بدت غريبة في البيت بعدما استولى عليها الشعور بامتلاك كل شيء، وجدت نفسها تنفر من جميلة، رأتها السبب في الخسارة وتمنت لو عاد الزمن ونفذت طلب محمد حين سمعها صرحت له بحملها، في حقيقة الأمر هي حاولت معالجة الموقف بمفردها واستخدمت الطرق المعتادة من أدوية ونشاط زائد للإجهاض لكنها فشلت كما أسهم طابعها النحيف في إخفاء حملها عن الأعين حتى الشهر السادس، حاول محمد إثناءها عن إبقاء الطفل، لكنها رفضت، رأت في وجوده حكمة ما بعدما رفض الرحيل بالطرق التقليدية، ستمنح محمد هدية انتظرها سنين كثيرة، لم تكن بثينة تدري أن محمدًا لم ينتظر أبدًا أن يكون أبًا، ولم تدرِ أيضًا أن دولت كانت تعرف بحملها منذ أن أتت بها طفلة ذات أربع سنوات من ملجأ المطرية.

3

بعدما أوصد محمد كل الأبواب في وجه بثينة كان يجد في جميلة نواحي جديدة، لقد غيرت فيه دون أن تتعمد، لِمَ لا؟ هي ابنته الحقيقية، لقد أعطته بسماتها مشاعر لم تصله من قبل، تذكّر أحاسيسه تجاه بثينة وقارن، لكن وسواسًا شرسًا هاجمه وبث داخله وعيًا بعدم جواز المقارنة الآن، أمعن النظر في رضيعته بينما بثينة تتسرب إلى الغرفة وتمسح بيدها على شعره لينظر لها بضيق ثم

يسرع مبتعدًا؛ فتجري خلفه وتلحق به إلى غرفة المكتب قبل أن يغلقه.

سألته:

- والحل؟ ما نهاية هربك مني؟

رد بتنهيدة متعبة:

- لو عرفت لارتحت، ما أنا على يقين منه أنني بخير طالما كنت بعيدًا عنك.

اقتربت منه، لفت يديها كأنهما ثعبان حول رقبته وقالت:

- محمد، استسلم لحبنا، مقاومتك لي مجددًا لن تفيد.

أبعد يديها عنه فاتجهت بثينة وأمسكت بزجاجة الويسكي وسكبت منها كأسًا، قالت وهي تقدمه له:

- لتشرب وتقيم الأمر تحت تأثيره.

ظلت يدها ممتدة حتى التقط منها الكأس، شربه فقدمت له آخر حتى احتضنها بقوة، وعلى أرضية غرفة المكتب حدث كل شيء، شعرت بثينة بسعادة غامرة بينما أفاق محمد مصدومًا كأنها مرته الأولى، هبَّ إلى غرفة النوم، كانت دولت تطالع مجلة، تمدد محمد جوارها ونام دون أن ينطق. أحلامه هذه الليلة كانت غريبة، رأى نفسه يضاجع دولت، فيتحول الوجه؛ لتصبح بثينة، ثم تعود لتصبح دولت قبل أن يتحول ثانية لوجه غير معروف له، إلا أن صاحبة هذا الوجه تقول له:

- بابا، أنا أحبك.

يفطن محمد لصاحبة الوجه، إنها جميلة، ترتدي قميص بثينة، لحظتها يقوم محمد فزعًا، يجد دولت ما تزال مستيقظة، يطلب منها باكيًا أن تُنهي هذا الكابوس.

تفاجئ دولت بثينة بقرارها، ترفضه، تسأل بثينة:

- ومحمد موافق؟

ترد دولت ببساطة:

- لا شأن لك..

ثم تكمل مبتسمة:

- صدقيني الإقامة الدائمة في لندن ستفتح لك أبواب الدنيا، دراسة جديدة، أصدقاء جدد، أما هنا لفتاة مثلك سجن، طاقتك يا بثينة لا حدود لها، فوق أي احتمال بشري، تحتاجين لعالم أوسع.

تسكت بثينة، تقترب منها دولت أكثر وتقول:

- أنت ابنتي أنا، ويهمني مصلحتك، البقاء هنا والركض خلف رجل لا يناسبك، يجب وضع نهاية لتجربتك الأولى.

تقول بثينة لتضع دولت محل الاتهام:

- أنت السبب، تريدين إبعادي عنه، تشعرين بالغيرة.

تستهزئ دولت بحديثها:

- ما زلتِ ساذجة، أحتاج إلى بقائك جواري لأسباب كثيرة، لقد أصبحت ملجئي الخاص، يمكنك توفير ولد لي من محمد كلما أردت، لكن محمد على وشك الجنون، كوابيسه تتكرر، جلساته بمفرده تطول، بدأت أشعر بالقلق عليه، ومن واجبك مساعدتي حتى نُريحه.

سألت بثينة:

- وهل في بعدي راحة له؟

ردت دولت مؤكدة:

- نعم.

وافقت بثينة على الانتقال والعيش في لندن، وكالعادة أتمت دولت كل الإجراءات والأوراق بسهولة، شعر محمد براحة، وقبل سفر بثينة بساعات اختفت جميلة من البيت، جن جنون محمد، أبلغ الشرطة التي بدأت تحقيقاتها، سألته عن أعدائه، طلبت منه الانتظار حتى يتصل الخاطف به ويطلب فدية، بينما غرقت دولت في أفكارها، طلبت بثينة البقاء للاطمئنان على جميلة، لكن دولت أصرت على تسفيرها في الموعد المحدد، وفي صالة مطار القاهرة ودعتها، وبينما الطائرة ترتفع ابتسمت بثينة، لقد غادرت خلسة ووضعت جميلة أمام ملجأ المطرية ورحلت، لن تترك لهما طفلتها وتمشي، يجب أن تصيبهما بخسارة، خسارة بقدر حبها لمحمد، هذا الحب الذي بدا مستحيلًا ثم تحقق، ومع تحقيقه بشكل كامل تحول حلمها إلى كابوس، وهي الآن محملة بتجربة وحيدة مختلفة تطير إلى مكان جديد، قضت سنواتها الأربع الأولى في الملجأ ثم ما يقارب ستة عشر عامًا في ضيافة السيد محمد عبد الله وزوجته دولت، والآن... كم ستعيش في المكان الجديد ومتى ستنتقل منه؟ عمومًا لا غرابة في ذلك، فقد تخلت عنها أمها التي أنجبتها طواعية وتركتها جوار سور السفارة الأمريكية في جاردن سيتي، هكذا قالت لها دولت، سألت بثينة عن ماهية الشخص الذي سيتمسك بها في حياته، أم أنها ستظل بلا جذور تُذكر، ابتلعت بثينة ذكرياتها وتلفتت حولها، وجدت رجلًا أشيب الشعر يجلس منشغلًا بمجلة، ابتسمت له ببرَاءة فابتسم.

جلس محمد جوار الهاتف منتظرًا اتصال من خاطف ابنته، كان يحس بقلق شديد، الأمر الوحيد الجيد الذي ناله من اختفاء جميلة هو عدم توديعه لبثينة، لقد نجحت دولت في أن تنهي كابوسه ولو بشكل مؤقت، والآن عاد البيت دون أولاد، أراحته الفكرة للحظات قبل أن يتذكر جميلة، عاد وتحركت خيالاته لترسمه يضاجعها ليشعر بثقل ما، يرن جرس الهاتف، يرد، يجد مكالمة من شركته فيغلق

الخط غاضبًا وينتظر.

بعد أن خرجت دولت من المطار، طلبت من السائق إيقاف السيارة على جانب الطريق، شردت بعقلها لدقائق، ابتسمت، تعرف جيدًا أن بثينة هي من أخذت جميلة ووضعتها في ملجأ المطرية نفسه الذي أتت منه، ترى في هذا انتقامًا مقبولًا لأنها أبعدتها عن رجلها، ما تزال بثينة ساذجة نزقة تحتاج كثيرًا من الوقت كي تنضج، ما يشغل دولت الآن هو هل تذهب وتحضر جميلة أم تنتظر لبعض الوقت؟ أربع سنوات مثلًا، لتدخل البيت في السن الذي دخلت فيه بثية المنزل، لأول مرة تشعر دولت ببعض الحيرة، فكرت في انتشال زوجها من الدوامة التي أدخلته فيها من قبل، وبدافع من مسئوليتها الدائمة عنه رأت في ترك جميلة في الملجأ للأبد مصدر راحة له وإن أشعرها هذا ببعض الضيق لأنه سيفقدها إحساس الأمومة الذي اعتادت عليه، أخذت دولت نفسًا طويلًا، تعرف جيدًا أنها قد تعدل عن قرارها هذا في أي وقت وتذهب إلى الملجأ وتأخذ جميلة، لا تعرف متى تحديدًا لكن هذا قد يحدث، وحتى يحدث هذا الأمر ستعود للبيت وتجلس بجوار محمد منتظرة معه مكالمة خاطف ابنتها.

---

(1) **ملخص ما سبق:** تخون دولت زوجها مع محمد الذي يصغرها بثلاث سنوات، تغدق دولت على محمد بالهدايا ثم تتطلق وتتزوج منه وبمساعدة منها يستطيع محمد تحقيق نجاحات مبهرة في عمله ليصبح في مستوى ثراء زوجته، تسعى دولت بكل الطرق للإنجاب لكنها عاقر لا تنجب، تلجأ إلى تبني بثينة ذات الأعوام الأربعة من الملجأ، تكبر بثينة ومحمد لا يشعر بها ابنة له بل يراوده إحساس آخر، يتطور هذا الإحساس إلى أن تنشأ بينهما علاقة تحمل بثينة على أثرها وترفض الإجهاض فيصارح محمد دولت التي تدهشه بهدوئها، تخبره أنها كانت تتوقع حدوث كل ذلك وتطلب منه أن يسافروا جميعًا إلى لندن لتنجب بثينة هناك ويعودوا بعد أشهر ويخبروا الجميع هنا أن دولت تبنت طفلًا جديدًا، يرفض محمد فهو يرغب أن يكون الولد لبوسي وله لكنه لا يعرف كيف يمكن لهذا أن يحدث فهو والدها الذي تبناها وأعطاها اسمه، تحتويه دولت وتخبره أن لكل شيء حلًا عبر التفكير.

العودة(1)

العودة
٢٧٠٧٤٢٨١١٢

كان الغضب داخل حامد، داخله فقط، رغم كونه غضبًا لا يوصف لكنه لم يكن قادرًا على كسر غلافه الخارجي؛ ليظهر ويؤثر في عالمه بشكل واضح، رغب حامد في البكاء مجددًا، لكنه تذكر أنه ليس وحده، كان القطار يسير ببطء، يقف في كل مركز.. قرية، ينزل فلاحون ويركب فلاحون، لو عرف أحدهم ما حدث لأكلوا وجهك يا حامد، ولو عرفوا تصرفك البائس لأكلوا جسدك كله لا وجهك فقط، أنت منهك يا حامد، منهك منذ يوم مولدك، منذ لحظة وضع أمك لك، أخبرتك أنك لم تبكِ فاضطرت أم عبده الداية لتصفعك على مؤخرتك، فبكيت، هذا نفسه ما أردت فعله حينما دفعت باب غرفتك ووجدت الأفندي قابع فوق زوجتك وقد أنزل بنطاله وسرواله الداخلي لتبق مؤخرته العارية ناصعة البياض ترتفع وتهبط في قوة، وحين هتفت فتحية بخوف "حامد" توقفت المؤخرة عن الحركة، ثبت الوقت للحظات ثم هرب الأفندي بينما أنت واقف كتمثال الشمع، جريت خلفه إكرامًا لما تبقى لك من رجولة، أما في حقيقة الأمر فأنت تعرف أنك لن تلحقه، حتى لو كدت لتباطأت كي لا تفعل، وحين عدت إلى غرفتك لم تكن لديك خطة محددة، تلاعبت بك الأفكار كما يتلاعب سلطان بكرته الشراب، ورد حل القتل في ذهنك لكنك طردته، جلست وبكيت كما يفعل سلطان حين يضيع كرته أسفل إحدى السيارات ويفشل في إعادتها لينادي عليك فتفعل، لكن الشرف الذي ضاع كيف يعود، رغبت في الارتماء بحضن فتحية والبكاء مطولًا، لكنها سبب الألم، جزء منها انتفض، كشف عن كائن غريب مرعب نهشك من ظهرك، وأنت آمن مسلم مستسلم.

Telegram:@mbooks90

كيف يمكن قتل هذا الكائن دون قتل فتحية؟!

لم يكن حامد خائفًا من العقاب، يعلم جيدًا أن فتحية خائنة والقانون لا يقف مع من يخون إلا إذا كان ذكرًا، وفتحية أنثى. حلقة أضعف يمكن الضغط عليها وتهشيم رأسها، تعجب حامد مما يوقفه عن الفعل، هو يعلم أن الأفندي متفوق عليه، ولو قتله لسُجن، لكن فتحية لا ثمن لها.

إذا ماذا تغير فيك يا حامد؟! هل قتلت مصر رجولتك كما قتلت فيك أشياء أخرى؟!

منذ أن نزلت إلى هذه البلاد واختلفت، لم تعد ذلك الفتى الخجول، تبدلت.. بمرور الوقت أصبحت بوابًا كأنك ورثت هذه المهنة عن أسلافك، تعرف كيف تُظهر لكل ساكن شكل الاحترام الذي يريده، وتعي الطريقة المثلى للتعامل مع نسائهم، وتحترف التعامل مع الخادمات والتحرش بهن، وتوقن أن فتحية لا تشبه هذا كله، لكن ثوابتك هُدمت بمجرد أن لمحت مؤخرة الأفندي ترتفع لتضرب زوجتك بقوة، صاحت فتحية: "حامد"، لكن متى خرج منها اسمي: بمجرد أن رأتني، أم بعد لحظة أو اثنتين أو ثلاث؟ لو امتلكتها نشوة ما لأتت الصيحة متأخرة، ومؤكد أن الأفندي بارع في مثل هذه الأشياء أما أنت يا حامد فخبراتك لم تتجاوز حدود حيوانات بلدتك في مراهقتك قبل أن تتلصص على الخادمات وهن يستلمن اللبن في الصباح، أما عن تجاربك الكاملة في مرحلة ما قبل فتحية فقد كانت تعتمد على المضايقة والابتزاز: هذه خادمة اتهمتها الهانم بالسرقة فتناديك لتتعامل معها، تفتشها فلا تجد شيئًا، وكيف تجد وقد اقتسمت معها المسروق، تقودها إلى غرفتك لتكمل صفقتك قبل أن تهرب منك تحت إشرافك أثناء الذهاب إلى قسم الشرطة، وهذه فتاة ليل أتت لطلاب شقة الطابق السابع فتنتظرها حتى تنزل وتقودها إلى غرفتك لدقائق ثم ترحل وقد بدا عليها الضيق فهي لم تحسب حسابك ضمن زبائن اليوم.

وهل هذه الخبرات كافية للمقارنة بالأفندي الذي جاب مصر مَن شمالها لجنوبها ومن شرقها لغربها؟

يهز حامد رأسه نافيًا بينما القطار يتجاوز عمدان النور بشكل خاطف، يخرجه سلطان من صخب الأفكار بشد جلبابه فينتبه، يشير سلطان إلى بائع العسلية فيخرج حامد قرشًا من جيب الصديري ويعطيه لولده الذي يحصل على العسلية ويعيد لوالده الباقي فلا يهتم بأخذه على غير المعتاد.

وهل نحن في ظرف معتاد الآن؟

يشعر سلطان بالحيرة وهو ممسك بالنقود، يلمح بائع الطعمية قادمًا فيبتسم ويعرف ماذا سيفعل، أما حامد فما زال متخبطًا، وبينما سلطان يأكل ساندوتش الطعمية ويبتلع حبات الطماطم الصغيرة كان حامد يبتلع هزيمته القاهرة، لم يقدر على حبس دموعه أكثر من ذلك فوضع كفيه على وجهه وبكى.

***

الصخب.. الزحام، كل يوم في هذا البلد مولد أو عيد، ومولد اليوم على شرفك يا فتحية، ذلك الشرف الذي نجح الأفندي في تلويثه حين اندمجتما في كتلة واحدة على أرض غرفة حامد، لا أعرف كيف سقطت لكن الأهم أن السقوط حدث بالفعل، وعليك الآن أن تواجهي مصيرك، لست وحدك بل معك عنتر ابنكما الثاني، تسترجعين الحديث الأول للأفندي معك حين سألك عن اسم أولادك فقلت "الأكبر سلطان والأصغر عنتر"، حينها قال الأفندي جملته ذات المغزى "عيلة أبطال صحيح"، لو أغلقت باب الشيطان حينها ولم تردي وهرولت إلى غرفتك لما فُتحت عليك طاقة النار تلك، لا.. منذ أن نظر لك الأفندي بقصد أو دون قصد وأنت دخلت جهنم.. وبالسقوط الأخير مكثت بمفردك في القاع، لا، لستِ وحدك، بل معك حامد الذي تسمر في مكانه حين رآك والأفندي في... لا تقدرين على التخيل، ماذا فعلت بنفسك يا فتحية؟ أي جحيم ألقيت نفسك فيه؟ منذ أن نزلت مصر وشبهتها بالبحر كان عليك كيلا تغرقي ألا تتوقفي عن العوم، والبحر هائج والقروش تحوم حول الفريسة بهدوء، لكنه هاجمني كذئب.. واستمتع بي كضبع يأكل فريسته الميتة في تلذذ.

وما العمل الآن يا فتحية؟

تجلسين على الرصيف المواجه لمحطة مصر حاملة طفلك الصغير الذي يبكي من فرط جوعه، تلقمينه ثديك الضامر وتخفينه عن المارة بطرحتك السوداء،

العالم يمشي من حولك ولا يشعر بك، نحيبك صامت لا يقوى على إصدار صوت، تمنحك فتاة طيبة حسنة، تلقيها في حجرك وتنصرف، تتعجبين داخلك يا فتحية، لم تأت إلى مصر لتكوني سائلة، جئت إلى أم الدنيا لترى الدنيا، لكن حدودك لم تتجاوز شارع البناية التي يحرسها حامد، يا لخيبة أملك ويا لقسوتك على الضيوف يا مصر! لست ضيفة ومصر ليست قاسية، أصبحت صاحبة دار.. ليست دارًا بل غرفة، لكن.. هل غرفة في مصر بالقليل؟ أصبحت طماعة يا فتحية، طماعة ومحتالة أيضًا، تنعتين مصر بالقسوة وهي ليست كذلك، مئات من عينة هذا الأفندي الذي نالك هم سبب قسوتها، مصر ممتلئة بالأفندية الذين يبحثون عنك يا فتحية، وأنت هنا.. انتهى بك الحال أمام محطة مصر التي تستقبل وافدين وتودع راحلين.

تقوم فتحية من مكانها معترضة على نهايتها، لها مطلق الحق في ذلك فهي البطلة هنا ومن حق البطل أن يفعل كل ما يريد.. في حدود المعقول طبعًا، وهي ترى أن هذه النهاية غير عادلة، النهاية الأولى كانت الهرب من حامد وفتح آفاق لعوالم جديدة، صحيح غير معروف طبيعتها لكنها جديدة على أي حال، أما الآن فكل هذه العوالم قد ضُربت في صفر لتصير فتحية صفرًا على يسار المدينة، بلا قيمة حقيقية.. تتمنين زرًا تضغطين عليه يا فتحية لتعودي للبدء.

لكن..

ما قيمة البداية لو سلكنا الطريق نفسه؟

تعلم فتحية جيدًا أن الزمن لو عاد بها لنزلت إلى مصر مجددًا، هذا هو القدر.. الهاتف.. المكتوب، سمِّه كما تسميه، هي الحقيقة، لا مجال للهرب مما فُرض علينا، ولا مجال للمراوغة، إن النداهة تنادي وعلينا اتباعها، هي من وضعت القواعد ونحن لا نملك سوى التنفيذ.

وماذا تقول النداهة لفتحية الآن؟

في هذه اللحظة بالذات لا تسمع فتحية سوى أصوات مشوشة، لم تقدر بعد على تحديد وجهتها الجديدة، لذا بعد أن انتصبت واقفة لدقائق جلست ثانيةً في استسلام حتى يأتيها اليقين.

***

عاد الأفندي إلى شقته بعد أن اطمأن لهدوء الأجواء تمامًا، توتر للحظة وهو يجتاز مدخل العمارة كأنه يدخله للمرة الأولى، وحينما نظر إلى غرفة حامد المغلقة تنهد في ارتياح، كان خائفًا من حامد بشكل ما، خائفًا من أن يصبح صاحب ثأر شخصي معه، لم يكن الأفندي يعلم جذور حامد لكنه يعلم أن هذه الجذور متعبة بما تحمله من معتقدات متخلّفة، لكنه لم يكن يعلم أيضًا أن حامد قد اقتلع من جذوره تلك منذ أمد بعيد.

أغلق الأفندي، ويدعونه علاء، صفحة فتحية، لقد نالها في اللحظة التي فقد فيها الأمل، سقطت بعد أن أنهكته وكادت تغيّر وجهة نظره في كافة النساء، وصل لمرحلة كان قد أوشك فيها على أن يعرض عليها ما تشاء ليحصل عليها، يا للسخرية! لقد فكر فيها لوهلة كزوجة، وبمنتهى الصراحة لو لم يحصل عليها لفعل.

لكن..

هل يدفع المرء ثمنًا لشيء قد حصل عليه؟

بمنتهى الصدق.. من يفعل هذا غبي بكل تأكيد، من وجهة نظر الأفندي بالطبع، أما الراوي فلا شأن لنا بمعتقده أو بجذوره.

عاد الأفندي إلى خموله وإن كان مضطربًا بعض الشيء، يشعر أنه تحت تهديد موقف الأمس، لم يأمن العودة إلى شقته باليوم السابق، مكث لدى صديق واليوم ظهرًا أرسله ليستكشف الأمر، وحين عاد طمأنه أن الهدوء يسيطر على كل شيء، علاء خائف من هذا الهدوء الذي قد يسبق عاصفة، أكد الصديق أن هناك

قفلًا كبيرًا على باب غرفة البواب، وعندما سأل أخبره الجميع أن حامد وأسرته رحلوا دون أن يخبروا أحدًا، عندما سمع الأفندي هذا الكلام اعتقد أن حامد سيقتل فتحية في بلدتهم، أشعل سيجارته وأخذ نفسًا طويلًا، يرى هذه نهاية عادلة ففتحية غير أمينة على شرف زوجها، بشكل عام كل النساء في قاموسه غير ذوات ثقة بمن فيهن والدته، حتى الآن لم يقابل علاء من تغير وجهة نظره، ويتمنى ألا يقابلها؛ لأنه سيتزوجها للأسف.

وماذا إذا تزوجها ثم خانته؟

إن هذا لسؤال محير، ومجرد التفكير في إجابة يستدعي حالة أشد حيرة، للحظة أشفقت على حامد، فاحتقرته ثم نسيته كما نسيت آخرين، إن نسيانه بشكل كامل صعب، فالمميز هذه المرة هي المواجهة المباشرة مع مالك الضحية، لم أعتقد أن هذا اللعين سيأتي ليفسد عليّ ما تبقى من المتعة، لكن هذا لا يهم فمنذ لحظة السقوط الأولى وقد حسبت المتعة كاملة، فما يسقط جزؤه يسقط كله، هذا مؤكد بلا شك.

أشعل الأفندي سيجارة جديدة بعد أن حصل على حمام ساخن أزال به رائحة فتحية من جسده، جلس يفكر في اللاشيء، نظر إلى ساعة الحائط فوجد موعد الغداء قد حان، الغريب أن الجوع قرصه حين عرف بالتوقيت، فكر في وجبته القادمة، نظر في ثلاجته فوجدها شبه فارغة، يحتاج إلى تموين عاجل، خسارة لو كان حامد هنا لأرسله لإحضار كل ما يريد، ومع غيابه لتثنى له أن يقضي بعض الوقت مع فتحية. لا مجال للتخيل، فلا حامد هنا ولا فتحية، رحلت عائلة الأبطال ولا مجال لعودتها حسب اعتقادي. أبعد الأفندي فكرة الجوع عن رأسه ودخل إلى غرفته لينام على فراشه الذي غاب عنه أمس، وضع جسده على السرير في تكاسل وتمنى أن يتوقف الزمن ولا يحسب من عمره المزيد حتى يجد ضحيته الجديدة.

***

وسط أكوام من اللحم نزل حامد، سلطان على كتفه حتى لا تدهسه أقدام الصاعدين، على الرصيف وقف حائرًا لا يدري ما الخطوة التالية، وسط أفكاره التي غرق بها لا يسمع ذلك الريفي الذي يناديه من بعيد بإلحاح، يجذبه سلطان من الجلباب مجددًا لكن هيهات فوضع الثبات الذي أخذه حامد لا يقوى على إخراجه منه إلا لقطة جديدة تقاوم فيها فتحية الأفندي، حينها فقط يمكنه أن يعود لنفسه، اقترب الريفي وهو ما زال ينادي:

- حامد!

فاق حامد ونظر تائهًا إلى مناديه الذي احتضنه بعشم طبيعي ثم سأله عن مصر.. عن الأخبار والأحوال هناك، أجاب حامد باقتضاب، وحين وصل مطاف الحديث إلى العائلة سأل الريفي عن الأمر الصعب: "وجماعتك؟ عسى يكونوا بخير"، يرد حامد: "على ما يرام".

جلس حامد على دكة خشبية قديمة حالها أشبه بحاله الحالي، سلطان كنحلة يدور حوله بلا توقف، حل سؤاله الذي أجله منذ أن هربت فتحية وصعد القطار، ماذا ستقول لأهل البلد؟ الإجابة الأولى السهلة أنه تركها من أجل مراعاة العمارة في غيابه، هي حجة مناسبة في أي مكان إلا هنا، سيقولون "يا عيب الشوم.. تركت امرأتك لوحدها يا حامد..

مصر غيرتك"، ولو قلت مريضة سيقولون "يا عيب الشوم.. تركت امرأتك مريضة لوحدها يا حامد.. مصر غيَّرتك"، صحيح أن مصر غيَّرتك لكن قومك لن يتغيروا.. على الأقل ظاهريًا.

إذن ما الداعي للقدوم دون فتحية؟

بمراجعة النفس ستجده أغبى قرار اتخذته في حياتك، لكن ما التصرف السليم من الأصل؟! لو لم تسقطي يا فتحية لما وصلت إلى هنا، ثُرى أين ذهبت؟ هل اشتقت له وعدت لتكملا ما قاطعتكما عن فعله؟! رغب حامد في الصراخ لكن

القشرة الخارجية ما زالت صامدة، لكن إلى متى الصمود؟

هَبّ حامد واقفًا، توجه إلى شباك التذاكر وقطع تذكرة جديدة لكنها تذكرة عودة إلى حيث جاء، عليه أن يجد فتحية.

هل ستظلين جالسة هكذا طوال النهار يا فتحية؟

هبي.. قومي.. غيّري العالم، أم أنكِ استسلمت لكونك سائلة كما استسلمت للأفندي ليعبث بك؟ يأتيها الهاتف فتقوم ثم ينقطع فتجلس، هكذا قضت فتحية ساعتها وسط حيرة وتخبط وسؤال. لكنها في النهاية قامت، استجمعت ما تبقى من قواها وتحركت، جذب نظرها الأتوبيس المار لسبب لا تدركه فركبت وعندما جاء الكمسري نحوها قطعت تذكرة وسألته، لم تكن هي من تسأل بل الدافع الذي جعلها تركب هذا الأتوبيس بالذات، طلت فتحية من النافذة تتابع الطريق، كانت رؤيتها هذه المرة مختلفة، في كل مرة سابقة كانت تطالع كأنها غريبة، تشاهد عالمًا ليست جزء منه.. من تكوينه، أما الآن فلا.. دمجها الأفندي وأدخلها المجتمع الذي رغبت به منذ أن وافقت على الزواج من حامد، مَرَّ شريط الذاكرة أمامها بالكامل، تذكرت تفاصيل اختزنها عقلها الباطن وعرضها عليها الآن، تذكرت ثنايا وجه الأفندي التي لم ترغب في رؤيتها بهذه الدقة، تذكرت وجه حامد حين تفوهت باسمه لحظة الكشف، تذكرت وتذكرت وتذكرت، لكنها نسيت نفسها الحقيقية، نفسها التي لو تعرف أن ثمن الجلوس في مصر هو النفس لما وطأت هذه الأرض، لكنها وطأت ودفعت، لذا عليها أن تعيش، ومن حصل على الثمن لا بد أن يساعدها، في هذه اللحظة أدرك العقل سبب ركوبها هذا الأتوبيس، إن الأرقام التي تعرف فتحية شكلها ولا تعرف كيف تُكتب أخبرتها بوجهة الأتوبيس الذي طالما مر أمامها وهي تقف أمام البناية.

تُرى أين تبدأ البحث يا حامد؟ أراك تبحث عن إبرة في كوم قش، من الممكن أن تضيع عمرك كله ولا تجدها، لذا هل يكون كلام العاقلين أن نضيع أعمارنا لنبحث عن الخونة؟ وبفرض وجدتها ماذا ستفعل بها؟ كانت تحت مداسك ولم تحرك

ساكنًا، فلتتحرك من محطة مصر، لا فائدة من الوقوف ولي الرقبة يمينًا ويسارًا، لو رآك أحد المخبرين لاعتقدك نشالًا تبحث عن فريسة ولجرك إلى قسم الشرطة وأنت الضحية يا حامد. تحرك حامد خارجًا من المحطة وفي ذيله سلطان الذي لا يعي فائدة الذهاب والعودة المفاجئة تلك.

مشى حامد كثيرًا، وأثناء المشي كانت أفكاره للحظة مشابهة لأفكار ولده، قطع السكة ذهابًا وإيابًا كان بلا فائدة، أنهكه السفر والعودة وهو ليس في الطقس المناسب؛ لكي ينهك فيكفيه ما حل فيه، شعر بالتعب.. التعب الشديد الذي جعله لأول مرة في حياته يوقف سيارة أجرة ويركبها واضعًا سلطان في حجره.

فتح حامد حجرته مجددًا، وضع أغراضه وترك طفله في مكانه المحبب لينعم أخيرا ببعض اللهو، أما هو فحدَّق مليًا في باب شقة الأفندي، حدَّق للدرجة التي اعتقد فيها أن مقلتي عينيه قد جحظتا ونبتت لهما أيادٍ وطرقت على الباب بشدة، الأمر الغريب أن الأفندي استيقظ من نومه على هذه الطرقات وفتح الباب؛ ليجد حامد أمامه لا يفصلهما إلا خطوتين على أقصى تقدير. تبادلا النظرات، كانت نظرات الأفندي أكثر ثباتًا، نظراته فقط لأن جسده من الداخل يرتعد، أما حامد فكان على العكس تمامًا، صمت الزمن وساد التوقف طويلًا، كأننا عدنا لنقطة الصفر حين عاد حامد إلى غرفته فلفظت فتحية اسمه.

قرر علاء قطع هذه اللحظات الباردة فقال "أنت قطعًا ابن حلال يا حامد.. كنت أفكر بك.. الثلاجة فارغة وأحتاج بعض الطلبات.. هل تأتي لي بها؟"، وقف حامد جامدًا، في خفة مكررة دخل الأفندي إلى شقته وعاد بورقة صغيرة كتب فيها ما يحتاجه، أعطاها لحامد الذي لم يُحرك يده، نجحت الورقة في تحويل نظر حامد إليها، لم يرَ حامد أسماء الأغراض التي كتبها علاء بل قرأ شيئًا آخر، تخيل في كل سطر قد كُتب "فتحية"، لم يتركه علاء يغرق في تخيلاته، مدَّ له خمسة جنيهات جديدة تمامًا، هذه المرة مدَّ حامد يده وتناولها، أغلق علاء الباب بعد جرعة صغيرة من اللطف بينما تحرك حامد بعد لحظات من غلق الباب ليقف أمام

البناية مطأطأ الرأس، وبينما يدس الورقة والمال في جيبه وقف الأتوبيس، نزلت فتحية؛ لتقف أمام حامد وجهًا لوجه، شعرت بأن نظراته تخترقها وأحست نفسها عارية أو شبه عارية.. هكذا اعتقدت، لم تستطع مجاراة نظراته، أنزلت رأسها للأرض وكذلك ولدها عنتر الذي جلس عند قدميها يبكي، قالت فتحية بصوت مرتبك: "حامد"، وقبل أن تكمل أسكتها بنظرة آمرة، قال بحدة: "أنا ذاهب لإحضار بعض الطلبات، انتبهي إلى العمارة كالمعتاد حتى عودتي". دون أي رد فعل هزت فتحية رأسها بالإيجاب، رفعت رضيعها ثانيةً وتحركت في خطوات بدأت صغيرة ثم اتسعت، مرت جوار حامد الذي أخذ نفسًا طويلًا ثم تحرك مغادرًا، دخلت البناية ومنها إلى الغرفة في اللحظة التي فتح فيها الأفندي بابه وقد ارتدى ثياب الخروج، اشتد جوعه ولن يقوى على الانتظار، فقرر ارتداء ملابسه وتناول الطعام في مطعم قريب، التفتت فتحية فوجدته ينظر لها مبتسمًا، قال: "حمد الله على السلامة"، لم ترد، تحولت نظرته من الابتسام إلى عدم الاكتراث، تحرك مغادرًا هو الآخر، بينما فتحية تخطو من جديد إلى غرفة حامد كأن شيئًا لم يكن.

---

(1) **ملخص ما سبق:** فتحية فتاة ريفية، بيضاء طويلة نحيفة ذات أنف صغير، يتقدم لها حامد ومصطفى، تفضل الزواج من حامد الذي يعمل بوابًا في القاهرة فقد كانت فتحية ترغب في النزول إلى مصر على حد قولها، وهناك أنجبت طفلين: سلطان وعنتر، وهناك أيضا تعرفت إلى عالم جديد لم تعرفه سابقًا، وهناك للأسف قابلت الأفندي ساكن شقة الطابق الأرضي الذي رغب في نيلها وبعد محاولات مضنية ومقاومات متتالية نجح في الحصول عليها ليراهما حامد الذي عاد من مشوار كان الأفندي قد دبره له، يهرب الأفندي وتبقى فتحية متمنية الموت على يد حامد لكنه لم يفعلها، لم حامد العزال وقرر العودة إلى البلد لكن فتحية هربت منه في زحام محطة مصر ليركب حامد القطار ويعود للبلد دونها.

عوض اللـه(1)

عوض الله
٢٧٠٧٤٢٨١١٢

الواد عوض مسكين، كان معذورًا في قرشين، لا أكتر ولا أقل، كفاية كل ما مر به، شاف من العجب ألوان، مهما حصل لا يستاهل الحجز ولا السجن، يا عيني زمانه قاعد دلوقتي قعدة الحبسجية، الدنيا شتا والجو بارد وكل مسجون له بلاطتان بالعدد يقرفص فيهما، آخر مرة زرته كان لونه مخطوفًا، طلب حاجة غريبة، بس ربنا قدرني واستقضيتها.

كل مرة أخرج بترابيزة البخت وأنا أبيع لعيال المدارس، أفتكر وأسأل حالي الحكاية كلها بدأت منين، ووصلت لحد هنا إزاي، الغرض كان توفيق رأسين في الحلال، لكن الحلال صعب وحلّال العقد شاهد وعارف دبة النملة ويشهد أن الغرض من السرقة الأولى كان الخير، والخير لم يتم حتى بعد الليلة الصعبة وموافقة مطر على التنازل عن بلاغ السرقة الذي قدمه في القسم، تخيل يا مؤمن كان الأخان أمام الضابط، واحد جالس والغضب يتطاير من عينيه والثاني يقف ذليلًا في يديه الكلبشات، دنيا، تخلي الجدع متهان، أما الطبال يلبس حذاءً ثمنه يحل أزمات خلق كتير، قصده، دخلنا أنا ووهيبة وعم بيومي وبدأنا نحايل مطر أفندي، يهديك يرضيك، طب الأخوة، العيش والملح، ليلة العمر، الفرحة هتضيع، ومطر على كلمة واحدة "وأنا مين يعوضني؟".

يقول عم بيومي راجيًا:

- العوض عوض الله يا مطر، وعوض أخوك والدم عمره ما يبقى ميا، والظفر...

يقاطعه مطر بسماجة:

- طلع من اللحم وخربش صاحبه، بلاش رغي كتير يا بيومي وخلينا في صلب الموضوع.

يبدو الضيق ظاهرًا على عم بيومي لكنه يحاول إخفاءه ويقول:

- كده يا مطر يا ابني؟ بتقوللي بيومي من غير عم، طب فرق السن ولا افتكر الجميل القديم، ده أنا سبب اليغمة اللي أنت فيها دي.

يقول مطر بلهجته نفسها:

- مش أوانه الكلام ده.

تتدخل وهيبة قائلة:

- لا، ده أوانه وأوانه وأوانه لحد ما يبان عنوانه.

أقول ملطفًا الأجواء:

- استهدى بالله يا مطر، دي في الأول والآخر جزمة.

يفتح مطر حسه عليّ مهددًا:

- أنت تخرس خالص يا عرص، أنا متأكد أنك وراء الحكاية من أولها لآخرها، شيطانها اللي بيوسوس وميتمسكش.

يقول عوض باندفاعه المعهود:

- ملكش دعوة بيه، أنا اللي سرقت وأنا اللي اتحاسب، من غير كتر كلام اللي عايز تعمله اعمله.

يضيق حضرة الضابط منا، يصرخ فينا لالتزام الصمت، نسكت كلنا بلا تردد، أصل مين يقدر يخالف كلام الحكومة؟!

يقول الضابط بحزم:

- هتكمل في محضرك ولا هتتنازل؟

يصمت مطر بينما عيوننا كلها منصبة عليه ننتنظر كلمة طيبة كما في نهايات الأفلام العربي التي نشاهدها في سينمات الدرجة الثالثة أنا وعوض بعدما أشطب ويتجبر بخاطري من رزق ترابيزة البخت، أرجع البيت وأحاسب أمي وأدكّن الباقي كالعادة وأدخل الحمام أستحمى وأنزل نشوف فيلم أجنبي لبت

شقرا عوض بيحبها، اسمها.. اسمها، مش فاكر، المهم لو لم نجد فيلمًا لها ندخل أي فيلم أجنبي آخر، لو شوفناهم كلهم كنا ندخل فيلمًا عربيًا. أنتبه لمطر الذي ينظر لعوض، يبادله عوض النظر، نظرات عوض طيبة مكسورة، طول عمرك على ده الحال يا عوض، تعمل عملتك وبعدين تظهر طيبتك، لا تحسب حساب ولا تفكر في نتائج ما تفعل، صحيح أن عوض لم يكن يملك حلًا آخر غير بيع الحذاء لكنه غلطان، غلطان لأنه انكشف، لا لأنه سرق، هذه هي القاعدة التي تربينا عليها هنا، تستاهل ما يجرى لك إذا انكشف سرك، ستتحمل عواقب لم تكن تتخيلها يا عوض، لست وحدك، كل عوض ينكشف سيُهان ويذل ويطلع دين أهله، أما مطر فاستعوض ربنا أمام الضابط ورحل غاضبًا أثناء قيام أمين الشرطة بفك الكلبشات لعوض، خرجنا من القسم وقد قررنا إكمال فرحتنا التي سرقها مطر، لكن وهيبة فاجأتنا بطلب الطلاق، تقول أنها لن تتزوج من سارق، تحبه صحيح وفيه كل العبر لكن السرقة داء لا علاج له، إدمان، يوم بعد يوم ستسوء حالته وسيظل يسرق حتى يسرقها، وإذا لم يسرقها فعلًا وهذا وارد؛ لأن وهيبة أصلًا مثلنا على باب الله، فإنه سيسرق عمرها حين يُقبض عليه، ستظل تدور خلفه في أقسام البوليس، وهي لا ترضى هذا بالطبع، وبينما وهيبة تولول كان عوض غير مصدق لما يحدث، وأنا، أنا شايف أننا داخل فيلم عربي لم ينتهِ بتنازل مطر بل مدّته وهيبة لدقائق إضافية، لم أكن مستمتعًا بالفرجة، كان بالي مشغولًا، لو تطلقا هل ستعيد وهيبة الشبكة لعوض؟ لو أعادتها سيصبح لدى عوض رأس مال، ممكن نشتري بضاعة وننزل نبيعها ونشتري بضاعة جديدة وهكذا حتى يصبح معنا شيء وشويات ونتمرمغ في النعمة التي خاصمتنا حتى يومنا هذا، كان عوض تحت تأثير الصدمة وعندما التقت عيوننا سألني عن العمل فأجبت بثقة دون تفكير: "العمل عمل ربنا". الردود الجاهزة منقذة في حالات كثيرة خصوصًا أني لا أعرف ماذا سنفعل، لم أكن أتوقع ترك وهيبة لعوض، لقد كانت تحبه بشدة وهو كذلك، وعم بيومي شاهد، ليس هو فحسب بل منطقة زينهم كلها تشهد على هذا الحب، تركته وهيبة بعد أن أكلا معًا البرتقال تحت الشجر،

وتبادلا القبلات الحلوة بعد المغرب، لقد عرفت هذا من عوض، لطالما حكى لي عما دار بينهما، يحدث هذا عندما تلف دماغه أثر الحشيش، أما دون حشيش فيقول لي عندما أسأله عن آخر فسحة له مع وهيبة "عيب أطلع أسرار أهل بيتي بره"، ولما كانت وهيبة لم تدخل البيت بعد كان يحكي لي في هدوء واستكانة عقب السيجارة الثالثة أو الرابعة بالكثير، لقد أحببت وهيبة من حب عوض لها، أصبحت حدوتة عوض ووهيبة جزءًا مهمًا في حياتي، لما أعرف أنهما خرجا معا أنتظر عوض ونروح نحشش سوا في العشة ويحكي لي وأتخيل المنظر لحد ما كل واحد فينا يروح في النوم، بالأمانة أنا زعلان من طلاق عوض ووهيبة، وواثق أن عم بيومي هو الآخر حزين جدًا، كان يراهن على استمرار هذا الزواج للأبد لكنه لم يصمد حتى لاستكمال الفرح. أطرد من دماغي الحكاية وأركز في شبكة وهيبة وأسأل عوض عن مصير الشبكة. من نظرة عوض لي كان واضحًا عليه أنه لم يفكر في الأمر، لكن، هذا حق والحق حبيب الرحمن، أنت لم تدخل عليها، يبقى تروح لعم بيومي العشة وتطلب منه يا تدخل يا يرجع لك الشبكة، كنت أتكلم بثقة كيميائي قدير، لم يجادلني عوض ورحل بخطوات سريعة بينما أنا روّحت واستغرقت في نوم عميق.

رأيت نفسي أبيع وأشتري كل شيء حتى أصبحت تاجرًا كبيرًا يملك معرضًا للسيارات ومحلًا للأحذية وآخر للملابس، تزوجت أربع نساء ثم استبدلتهن بأربع أخريات، ثم رأيتني أرشح نفسي في مجلس الشعب عن دائرتنا وعندما ألقي بكلمتي في مؤتمر شعبي ينهال التصفيق من أهل منطقتي، يتداخل التصفيق مع خبطات عوض على الباب، أستيقظ لاعنًا عوض الذي أضاع عليّ أجمل أحلامي، أجده قد عاد خائبًا ولم يستطع إعادة الشبكة أو مضاجعة وهيبة، لكنه فعل مصيبة كعادته، تملكه الغضب من وهيبة فلم يفق إلا وهو يسكب الجاز على عشة عم بيومي ويشعل فيها النيران، الحمد لله لم يصب أحد بسوء جسدي، لكن العشة أصبحت كوم رماد، ودون أن تشور وهيبة أحدًا اتجهت إلى القسم وأبلغت الضابط بالواقعة فأمر رجاله بالبحث عن عوض وحين وجدوه عندي سحبوه

على الفور إلى الحجز، أبت الليلة المرور دون أن يبيت عوض محجوزًا، نصيبه.

في الصباح توجهت إلى القسم بعد أن احتميت ببطاقتي الشخصية وأخذت محاميًا يسكن في عشة جوارنا، وضع المحامي العقدة في المنشار، لا أمل في خروج عوض دون تنازل الطرف الآخر عن حقه، سحبت أقدامي واتجهت إلى عم بيومي الذي جلس وأسرته جوار بقايا بيته، لما رآني قال بأسى:

- ينفع اللي عمله عوض ده؟

هززت رأسي نافيًا لكنه لم يكن ينظر لي، كانت عيناه مسمرة على الحطام، بينما وهيبة جالسة تمارس هوايتها في الولولة والتعديد، لم أستطع سؤاله عن إمكانية التنازل، غادرت في لحظة قدوم عدولة الملاية، لحظتها رأيت ما سيحدث، وكنت على حق؛ لأن ما استنتجته حدث بالفعل. لقد طُلقت وهيبة من عوض مقابل التنازل عن البلاغ ضده، بعدها تزوجت وهيبة مباشرةً من شطة، تعجبت وقتها لأن معلوماتي الدينية المحدودة تقول أن المطلقة لها عدة ثلاثة أشهر، لكني حين استقصيت من إمام الجامع أفتاني أن المطلقة دون دخول لا عدة لها، حينها هززت رأسي لأعلى وأسفل دليلًا على الفهم ورحلت.

نقل شطة وهيبة من زينهم إلى بيت كان قد بناه في بركة الحاج، ومع وهيبة انتقلت عائلتها لتسكن هناك، غادرت وهيبة وغادرت معها روح عوض الذي ظهر من بعدها باهتًا شاحبًا، حاولت كثيرًا إخراجه مما هو فيه إلا أنه وإن حاول أن يبدو طبيعيًا كانت حقيقته تظهر في جلسات الحشيش المعتادة بيننا، كنت أراه يبكي وينتحب كالحريم، عوض الذي يعرفه الجميع ثورًا هائجًا يتشحتف ويقول بصوت مختنق: "فينك يا وهيبة؟"، إخص وألف إخص على الظروف التي تفعل فينا ما لا يخطر على العقل، لو أن أحدهم حكى لي لما صدقته لكني شفت بنن عيني وسمعت بطبلة أذني. في أحد المرات وأثناء جلوسنا وبعد أن لف الكيف العقل سألني عوض إذا ما كانت وهيبة سترجع له فرددت: "كله جايز بأمره".

قال عوض مفضفضًا:

- لو ترجع مستعد أسوي الهوايل.

قلت:

- هتعمل إيه يعني يا عوض؟ ما هي كانت قدامك ومعملتش حاجة.

رد بفخر:

- ازاي معملتش؟ امال جزمة مطر دي مين اللي سرقها؟ مش العبد لله؟

قلت:

- سرقة غشيم اتقفش بعدها بكم ساعة.

قال بلهجة من تعلم من درس فات:

- لا ما أنا خلاص نويت.

قلت:

- نويت تتوب وتشتغل بقى.

قال مصححًا:

- لا نويت مبقاش غشيم تاني.

قام عوض من مكانه، واتجه للتبول خارج العشة بينما بقيت أنا مستكينًا مكاني، ولم أشعر به عند عودته؛ لأني خلدت إلى نوم عميق وعندما استيقظت وجدت عوض جالسًا وبجواره شوال لم يكن موجودًا قبل نومي، سألته عن محتوى الشوال فصدمني، جلس عوض يفكر فيما يفعل، سمع أذان الفجر من الجامع فقام وفي نيته مشاركة المصلين صلاتهم، إلا أنه عند وصوله وجد مجموعة من الأحذية والشباشب أمام المسجد فلم يشعر بنفسه إلا وقد جمعها

كلها وعاد بها إلى العشة منتصرًا، صدقتِ يا وهيبة السرقة داء، من يجربها لا يستطيع التخلي عنها، أرى سبب حب بعض الناس لسرقة الأشياء هو شعور باستغفال غيرهم، لكن عوض المجنون هذا من استغفل، ناس طيبة رايحة تؤدي فرض ربنا، يخرب عشتك يا عوض! هذه المرة أنت حرامي نتن، ما سرقته لن يأتي بأكثر من عشرة جنيهات يوم ما يضربه الدم، طب روح اسرق عمر مكرم، قال عوض لي: "صرّف أنت البضاعة دي وأنا هجيبلك غيرها، رفضت إلا أنه أثّر عليّ بإلحاحه المتكرر. وضعت فرشتي على الأرض وانتظرت المارة، كنت تاجرًا مهاودًا يحرق الأسعار، انتهيت من البيع ولما عدت وجدت عوض أحضر شوالًا آخر، وبقينا على هذا الحال لجمعة حتى تم الإمساك بعوض أمام مسجد أبو حريبة، أخذت المحامي واتجهنا إلى عوض وخرجنا به بعد توسلات ووعود بتوبة نصوحة، وفعلا ظل عوض مستقيمًا لفترة لا بأس بها، وأقصد بمستقيم أنه لم يكن يفعل شيئًا، كان كالصنم لا ينفع ولا يضر، حتى نهض وقام وسرق من جديد، استغل عدم وجود بواب إحدى العمارات وشطّب على الأحذية والشباشب الموجودة أمام أبواب الشقق كلها، عاد بحصيلته التي بعتها له، أصبح عوض أكثر حذرًا، يدرس الأماكن قبل سرقتها وإن ظلت سرقاته معروفة ومحددة ليصبح عوض أشهر حرامي جزم في المنطقة.

ظلت قصته مع وهيبة تألمه وبدت لي سرقاته انتقامًا منها، كان يود الذهاب لها ليقول بالفم المليان: "أنا لسه بسرق وهفضل أسرق لحد ما أموت"، شعرت بخطورة الحال وتمنيت أن يتوقف عوض ويشتغل في شيء أكثر أمانًا فقلت له ناصحًا:

- ما تسيبك من السرقة اللي مش جايبه همها دي.

قال:

- شور عليا طيب.

قلت وكنت قد جهزت الرد من قبل أن يسألني حتى:

- المثل بيقولك إيه، إن سرقت اسرق جمل. وأنت شغلك في الجزم ده مش ولابد، ده غير السمعة يا عوض، بقى عوض خيرة شباب زينهم تلف عليه الأيام ويبقى...، والله لساني ما مطاوعني أنطقها.

سكت عوض وبدا لي يفكر لكنه صدمني حين قال:

- برضه أعمل إيه؟

قلت مقترحًا:

- إيه قولك نراضي مطر ويشوف لك شغلانة ألاجة معاه؟

قال عوض وهو يستبعد حدوث ذلك:

- تفتكر يوافق؟

قلت:

- نجرب ومش هنخسر حاجة.

وبالفعل قمنا وجربنا وبعد قبلات متتالية على رأس مطر ومحاولات مستميتة منا لمراضيته، شعر بالرضا، وجلسنا ثلاثتنا نحشش سوا حلاوة الصلح وتأكيدًا لصفاء الأنفس تجاه بعضها، وبينما الأبخرة تتشكل ترسم وجوهًا غير معروفة غمزني عوض فقلت لمطر:

- عوض أخوك حالته ناشفة أوي.

علّق مطر ساخرًا:

- مش حالته، دماغه.

سألت:

- والحل؟

قال ملتفتًا لعوض:

- تشتغل بودي جارد يا عوض؟ هتأكل من وراها الشهد.

بوداعة غير معتادة من عوض هز رأسه بالإيجاب فما كان من مطر إلا أن جره خلفه إلى الكباريه؛ ليعمل حارسًا للراقصة مستغلًا طوله وعرضه، جريت الجنيهات في يد عوض، تبدل حاله إلى الأفضل، ظهرت آثار النعمة عليّ بالتبعية، لكنها لم تنستر إلى النهاية، جاء خبر مشئوم ضرب لنا مفك في هذه الحياة الرغدة إلى حد ما، لقد وضعت وهيبة مولودها الأول وكسرت لنا وتيرة الأيام الجيدة، وابن الحرام المصفي الذي نقل الخبر لعوض سيتحمل ذنبه في رقبته، هاج عوض وأراد الذهاب حتى بيتها، لا أعرف لماذا قد يفعل ذلك لكني منعته بالعافية، حاولت تهدئته قدر الإمكان حتى جاء موعد شغله فذهب وعاد مطرودًا قبل شروق شمس اليوم الجديد، لم يخبرني عوض بما حدث إلا حين أتت الشرطة وشدته إلى القسم. الواد عوض فضل يسكر حتى لم يعد يفرق بين الألف وكوز الذرة، لعب الخمر به، أنهت الراقصة ولية نعمته نمرتها وأثناء تغييرها لملابسها تهجم عليها مناديًا إياها "وهيبة" فما كان منها إلا أن فرَّجت عليه أمة لا إله إلا الله، هرب عوض منهم وجاء عندي حتى أتت الشرطة وأخذته كالعادة.

صحبت المحامي الذي أخبرني بنصيحته المكررة: "لازم صاحبة الشكوى علشان عوض يخرج" فما كان مني إلا أن أحشر مطر أخاه ليحل الإشكال، رفض مطر التدخل قائلًا: "كان هيقطع عيشي الله يخرب بيته"، أصبح أمر عوض في مهب الريح، كنت أحضر له أثناء الزيارة العيش والحلاوة والسجائر، أوصيت عليه الشاويش وأعطيته جوز جنيهات من لحم الحي، كله يهون لأجل خاطرك يا ابن خالتي، طلب مني عوض شيئًا غريبًا لكنه أخبرني أنه الطلب الأخير ولو نفذته له سيقضي فترة سجنه مرتاح البال، سألته بارتياب عما يريد فقال:

- شبشب وهيبة.

كنت أعرف صعوبة المهمة، وهيبة تربية أبيها عم بيومي لذلك هي مفتحة ولا يتخاف عليها، ده الفأر لو دخل بيتهم يأكلوه، هززت رأسي فلم يفهمني عوض وقال:

- عايزك توعدني.

قلت بلا تفكير:

- أوعدك، بيننا عهد الله.

غادرت وأنا أضرب أخماس في أسداس، ماذا دفعني لقطع وعد لا يمكنني تنفيذه؟! أخذت أمخمخ مع نفسي أثناء شرب سيجارة محشية، وفي لحظة ما ابتسمت، لقيتها، قمت من مكاني متجهًا إلى بيت وهيبة، لبدت تحت بيتها منذ الظهيرة، ظللت يومين على هذا الحال حتى خرجت للشارع، كانت تحمل ابنها وحقيبة السوق الحمراء، اقتربت منها فتعجبت لرؤيتي، سألتني:

- ايه رماك علينا يا موكوس؟

للحظة واحدة فكرت في تغيير الخطة وإخبارها بكل شيء يمكن قلبها يلين للحب القديم وتعطيني الشبشب وأرحل في سلام، لكني تراجعت، أنا أعرف وهيبة جيدًا، دماغها بنت ستين في سبعين، قلت لها مغازلًا:

- طالب القرب.

بدا عليها الضيق:

- يخيبك! أنت شارب حاجة وجاي لي؟! هو أنا أخلص من المنيل عوض تطلعلي أنت في البخت؟

ظللت متسمرًا مكاني فما كان منها إلا أن تضع ابنها على مصطبة أقرب بيت

وتلقي بحقيبة السوق وتخلع حذاءها وعندما ابتعد تلقيني به فأعاود الاقتراب لتخلع الآخر وتبدأ في توجيه الضربات لي مع صويت بألفاظ نقتها بعناية، قبل التفاف الخلق حولنا أجذب الفردة من يدها وألتقط الأخرى من الأرض وأجري دون النظر خلفي أو التوقف، أتخيل وجه عوض المشرق حين أمنحه ما أراد فيهوّن عليّ ما مررت به، كانت المهمة صعبة لكن طلبك الأخير أمر يا عوض.

---

(1) **ملخص ما سبق:** قصة حب عوض ابن خالتي ووهيبة ابنة "عم بيومي" هي الأشهر في تلال زينهم، وكادت تفشل لما تقدم شطة ابن عدولة الملاية الذي يعمل في العراق لعم بيومي طالبًا يد ابنته، وقتها شرط عم بيومي على عوض إحضار الشبكة بأسرع وقت حتى لا تضيع وهيبة منه، الواد عوض الذي لا شغلة له ولا مشغلة مسكين لم يُجمد في حياته مئة جنيه كاملة، في يوم وليلة أصبح عليه يجمع مئة وخمسين جنيهًا ثمن الشبكة، جن عوض وما صدقني لما أخبرته أن أحد أحذية مطر أخيه الذي يعمل طبالًا تساوي مئة وخمسين جنيهًا، سرق عوض حذاء أخيه وبخبرتي في البيع والشراء بعته له في شارع الشواربي بأكثر من ثمنه وحصلت على عمولتي، اتجهنا مع وهيبة وعم بيومي للصائغ واشترينا الشبكة وأقمنا الفرح وأثناء اندماجنا في الرقص رأينا مطر قادمًا في تحفز ومعه أمين شرطة واثنان من المخبرين.

المؤلف في سطور

علي قطب

روائي ومهندس مصري من محافظة الغربية حاصل على ماجستير في هندسة الري من جامعة حلوان، له أربع روايات هي "كل ما أعرف، أنثى موازية، me كانو، الانتظار"، نشر في مجموعات قصصية مجمعة منها "غموض في مصر القديمة، يتذكرها دائما"، كما كتب قصصا للأطفال في مجلتي علاء الدين وقطر الندى وترجم قصة الأطفال "حكاية الأرنب بيتر" عن الإنجليزية، له مقالات في جرائد ومواقع الكترونية منها "مكة، القافلة، المنصة، منشور، الحكاية، الكتابة، إضاءات، عالم الكتاب، أدب ونقد، أدب 360"، حاصل على جوائز ثقافية منها "جائزة معرض القاهرة الدولي للكتاب الدورة 54 في أدب الطفل غير المنشور، جائزة وزارة الشباب والرياضة بالتعاون مع دار المعارف، جائزة ساويرس الثقافية، جائزة إحسان عبد القدوس، جائزة IRead للقصة التاريخية، جائزة المجلس الأعلى للثقافة للمواهب الأدبية "دورة خيري شلبي"، تكريم مركز عدن للدراسات بالتعاون مع مؤسسة GIZ الألمانية، جائزة أفضل قصة قصيرة على مستوى جامعات مصر، جائزة أفضل قصة قصيرة على مستوى جامعة حلوان لأربع سنوات، جائزة الصالون الثقافي العربي، جوائز القصة والمقال والفيلم القصير بمسابقة مراكز الشباب على مستوى محافظة القاهرة، كما تُرجمت له روايته me كانو إلى الإنجليزية ونُشرت عبرمنصة BOD، درس كتابة السيناريو على يد مدحت العدل ومحمد حفظي، شارك في كتابة وإنتاج الفيلم القصير "روح أليفة" الذي حصل على أكثر من خمس عشرة جائزة في مهرجانات سينمائية دولية، عمل كمديرا للنشر بدار المها للطباعة والنشر، ومحاضرا بالجامعة، ومهندسا تنفيذيا، ورئيسا لتحرير البرنامج الإذعي 60 دقيقة سعادة الذي أذيع على راديو القاهرة الكبرى ومديرا لتحرير سلسلة نجيب محفوظ الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، كما أعد وقدم سلسلة فيديوهات

"الروائي رقم 1".

Telegram:@mbooks90